

تاريخ الري في سهول الرافدين

من عصر صدر الاسلام حتى نهاية العهد العباسي

د. عواد مجيد الاعظمي



١٩٨٥



منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ الجمهورية العراقية

سلسلة كتب الجماهير

(٤٦)

تاريخ الري في سهول الرافدين

من عصر صدر الاسلام حتى نهاية العهد العباسي

١ هـ - ٦٥٦ هـ

٦٢٢ م - ١٢٥٨ م

بقلم

الدكتور عواد مجيد الأعظمي

كلية الآداب - جامعة بغداد

---

* القيت ملخصا من هذا البحث في الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب المنعقدة في الكويت ، شهر ديسمبر ، عام ١٩٨٣م .

الى القائد الموجه صدام حسين

باني مجـد الرافدين

والذائد عن كرامته وعزته

وصانع الانسان العراقي الجديد

اهدي هذا الكتاب

استهلال :

رأيت أن يكون محور بحثي في فترة مبكرة من فترات التاريخ العربي الأسلامي ، وأن ينطلق من الجذور التاريخية الأولى التي وضعت فيها اللبنات الأولى في أنشاء العديد من مشاريع الري ... هذه الفترة التاريخية الممتدة منذ تأسيس أول كيان سياسي عربي أسلامي في المدينة المنورة على يد الرسول الكريم (ص) في العام الأول للهجرة ، حتى نهاية الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م .

وأننا في فهمنا وأدراكنا ما وضع من مبادىء وقواعد منذ عهد الرسول (ص) ، بما يخص العناية بالماء وطرق تنظيمه ، والأرض ووسائل اروائها ، انما نهدف من وراء ذلك ابراز ثلاثة أمور هي :ـ

أولا : ويتجلى ذلك في أن العرب ـ ومنذ حياة الرسول الكريم (ص) ـ كانوا بناة حضارة وتقدم ورقي ، وقد أدركوا ـ ومنذ الوهلة الأولى ـ ما للماء ومصادره ، وكيفية تنظيمه من أهمية في حياة الأنسان ، وما يترتب على ذلك من اصلاح زراعي ، وتربية حيوانية ، وخاصة في المدينة المنورة ، ومناطق الجزيرة العربية الأخرى .

ثانياً : ان العرب المسلمين قد نقلوا معهم هذه القواعد والمبادىء الأصيلة الخاصة بالماء وطرق تنظيمه ، والأرض ووسائل اروائها الى الولايات العربية التي حررت من نير السلطتين الساسانية الفارسية ، والبيزنطية الرومية خلال العهدين الراشدي والأموي ، والتي شملت العراق ، وبلاد الشام ، ومصر ، وشمال أفريقية ... وغيرها .. وكانوا — في الوقت نفسه — يتفاعلون ويتعاملون مع الظروف الجديدة التي كانت تواجههم في هذه الولايات العربية المحررة من تنظيمات ساسانية وبيزنطية فيأخذون الصالح منها ، وينبذون الطالح منها ..

ثالثاً : وقد كانت مشاريع الري المتعددة التي أنجزها العرب المسلمون — خلال العهدين الراشدي والأموي في هذه الأقاليم العربية وخاصة في سهول وادي الرافدين موضوع بحثنا — تشكل اللبنة الأولى التي قامت على أسسها وقواعدها مشاريع الري الأخرى التي أنجزت خلال فترات التاريخ العباسي والى الوقت الحاضر .

وما مشاريع الري المتعددة التي نشهد قيامها الآن في سهول وادي الرافدين الا استمرار لهذه الأسس والقواعد الأولى التي وضعها أجدادنا الأوائل على أرض الرافدين المباركة ...

وبهذا خلف لنا أجدادنا الأوائل .. وعبر فترات تاريخهم — تراثاً علمياً حافلا تمثل في أقامة العديد من مشاريع الري ، هذه المشاريع التي تعتمد في انجازها على علم واسع في طوبغرافية الأرض

من توزيع وتخطيط ، ومسح وهندسة وعلم بالحساب والرياضيات والقياسات وعلم في التربة وأنواعها ، وصناعة الأسمدة . وغير ذلك مما يتعلق بالأنسان الفلاح ، وما يترتب عليه من معرفة بفصول السنة في جوها ومناخها من رياح وحرارة ومطر ، وعنايته الفائقة بالأرض والشجر والثمر ، والمحافظة عليها من الأمراض التي تصيبها ، وكيفية الوقاية منها ، ان كل هذا وغيره ان دل على شيء ، فأنما يدل على عمق المعرفة العلمية عند العرب المسلمين . والتي تجلت أيضاً فيما تركوه لنا في مصادرهم العديدة التي ألفوها في كل هذه العلوم على الصعيدين النظري والعملي ..

وأننا ـ ومن خلال بحثنا هذا ـ سوف نتطرق الى تبيان بعض هذه الجوانب العلمية ان لم يكن كلها وذلك وفقاً لانشاء كل مشروع من مشاريع الري ، وفي أي مكان من أمكنة سهول الرافدين ..

ولما كانت المياه ـ مهما تعددت مصادرها ـ ذات أهمية كبرى في حياة الشجرة والتربة التي تنمو عليها ، والفلاح الذي يرعاها ، لذا استوجب ذلك من الانسان والدولة بذل أقصى الجهود في تنظيم هذه المياه وخزنها ، وتوزيعها وتصريفها وابتكار الوسائل والطرق العديدة في مجالات السقي والارواء ، فنشأ عن كل ذلك ما ندعوه بأنشاء مشاريع ري متعددة .

وعليه ـ سوف نحاول هنا إبراز مدى اهتمام العرب المسلمين بهذا العنصر الحيوي ـ الماء ـ مبتدئين بعصر الرسول (ص)

عصر الرسول (ص) : ١ – ١١ هـ / ٦٢٢ – ٦٣٢ م

أولى الرسول (ص) عناية فائقة بالماء وبوسائل السقي والارواء ، كما اهتم (ص) اهتماماً كبيراً باحياء الأرض ، وخاصة الموات منها ، وقد تجلى ذلك بكل وضوح وجلاء في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ..

ورغم أن شبه الجزيرة العربية خالية من الأنهار ، لكن الطبيعة أنعست عليها بكثرة الينابيع والعيون والآبار والواحات ذات المياه العذبة . وقد أشاد القرآن الكريم بعذوبة هذه المياه ، وأهميتها في السقي والأرواء ، وميزها عن المياه المالحة المضرة ، ومن ذلك جاء قوله تعالى :

« هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج »[١] ... وفي أية قرآنية أخرى :

« وأسقيناكم ماء فراتا »[٢]

وفي القرآن الكريم آيات خالدات تشير إشارة واضحة وجلية الى أهمية الماء والأرض ، والزرع والزراع ، وأنواع الشجر والثمر، ومن هذه الآيات جاء قوله تعالى :

---

١ – سورة الفرقان ، اية – ٥٣ .
٢ – سورة المرسلات ، اية – ٢٧ .

« الذي جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون »[٣]

وقوله تعالى !

« وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات[٤] والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره اذا أثمر واتقوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين »[٥]

وفي القرآن الكريم آيات خالدات تشير اشارة واضحة وجلية في تحويل الأرض الجرداء الى أرض صالحة للزراعة . فمن ذلك قوله تعالى :

« أو لم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجزر [٦] فنخرج به زرعاً تأكل منه انعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون» [٧] ..

---

٣ ــ سورة البقرة ، اية ــ ٢٢ .

٤ ــ معروشات : أعدلها عريش ، أي قوائم لترفع عليه الكروم ونحوه .

٥ ــ سورة الأنعام ، اية ــ ١٤١ .

٦ ــ الجزر : جزرت الأرض ، صارت يابسه جرداء خالية من النبات لقلة مطرها فهي جزر .

٧ ــ سورة السجدة ، اية ــ ٢٧ .

وقوله تعالى أيضاً :

« كزرع أخرج شطئه[٨] فآزره وإستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار »[٩] .

ولاتقل أحاديث الرسول الشريفة أهمية عما ذكرناه من آيات القرآن الكريم بما يخص تنظيم المياه والأرض وأحيائها ...

ومما يتعلق بالمياه ، اعتبر الرسول (ص) الماء[١٠] ملكاً عاماً مشتركاً بين الناس ، اضافة الى الكلأ[١١] والنار[١٢] ..

يروى عن الرسول (ص) قوله : « الناس ــ وفي رواية أبي يوسف المسلمون ــ شركاء في الماء والكلأ والنار »[١٣] . وهذه قاعدة عامة وضعها الرسول (ص) .

---

٨ ــ شطئه : شطئة الزرع والنبات : قراخه ، وهو ما يخرج حول أصوله ، أو هو السنابل شاطىء الوادي .

٩ ــ سورة الفتح ، أية ــ ٢٩ .

١٠ــ الماء : ضرورته عامة .

١١ــ الكلأ : ما لم يصب فيه احد بحرث ولا غرس ، ضروري للمواشي والأغنام .

١٢ــ النار : ولعل المقصود بها الحطب الذي يستعمل للوقود .

١٣ــ أنظر : أبو عبيد ، القاسم بن سلام ، كتاب الأموال ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ ، ص٢٦٥ ..
وأبو يوسف ، كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٣٠٢هـ ، ص٩٧ .

كما وضع الرسول (ص) قاعدة عامة أخرى ، هي قاعدة عدم منع الماء في حالات الكلأ ، والبيع ، والشرب . يذكر أبو يوسف : أن الرسول (ص) قال : « لاتمنعوا كلأ ولا ماء ولا ناراً ، فأنه متاع للمغلوبين وقوة للمستضعفين »(١٤) .

ولما كانت الآبار والعيون تشكل المصادر المائية الأساسية في شبه الجزيرة العربية ، لذا أولى الرسول (ص) عناية كبيرة بتحديد مساحتها ، وكيفية الأستفادة منها واستملاكها .. فقد ورد في ذلك عن الرسول (ص) أنه : « اذا احتفر رجل بئراً في غير حق مسلم ولا معاهد ، كان له حولها أربعون ذراعاً اذا كانت للماشية ، فأن كانت للناضح ، فلها من الحريم ستون ذراعاً ، وان كانت عيناً فلهـا من الحريم خمسمائة ذراعاً » ومن ذلك قال الرسول (ص) : « بئر الناضح ستون ذراعاً ، وحريم العين خمسمائة ذراعاً ، وحريم البئر العطن أربعون ذراعاً عطناً للماشية »(١٥) .

وبذلك يكون الرسول (ص) ، قد شجع ، وسمح لمن لا يمتلك بئراً أو عينا أن يمتلكها ، شريطة أن تكون خارج نطاق الآبار والعيون المحدودة مساحتها وحريمها أعلاه ، وبهذا حدد الملكية الصغيرة ، ومنع الأضرار بها ..

١٤ـ انظر : ابو يوسف ، كتاب الخراج ، ص٩٧ .

١٥ـ انظر : يحيى بن ادم ، كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٣٠٤هـ ، ص١٠٠ ـ ١٠٣ ...

وفيما يتعلق بوسائل الأرواء وطرقها ، فقد راعى الرسول (ص) بينها وبين مقدار الضرائب الزراعية المفروضة على الأراضي ، وذلك وفقاً لمختلف وسائل الأرواء وتعددها ...

يذكر البلاذري : ان الرسول (ص) فرض على أهل اليمن فيما سقت السماء ، أو سقي غيلا العشر ، وفيما سقي بالغرب والداليه نصف العشر ، وقالوا « الغيل » السيح ، و « الغرب » الدلو ، ويعني ما سقي بالسواقي والدوالي ، والدواليب ، والغرافات[16] .

وبهذا فرقت الشريعة الأسلامية ، كما ورد في أحاديث الرسول (ص) بين ما سقي بالآلات من دلاء وسواق ، فجعلت فيه نصف العشر ، وبين ما سقي من غير استعانة بها ، فجعلت فيه العشر ، لما في الأول من نفقات على الزراع لم ينفق مثلها في الثاني ..

أما بما يتعلق بأحياء الأراضي ، فقد كان لأهتمام الرسول (ص) البالغ بالمياه ومصادرها من عيون وآبار ، ووسائل الأرواء وطرقها ، أثره الكبير في احياء مساحات واسعة من أراضي شبه الجزيرة العربية ، خاصة أراضي الموات منها .. كما كانت — في الوقت نفسه — عاملا قوياً ودافعاً كبيراً لخلفائه من بعده في السير على هديه ، وتنفيذ ما وضعه (ص) من أسس وقواعد بهذا الخصوص ..

١٦— أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، مصر ، ١٩٥٩ ، ص٨٢ .

وقد قدمت لنا مصادرنا الأولية شرحاً دقيقاً وجلياً لما هو المقصود من احياء أراضي الموات وتحديد مواقعها ..

يذكر يحيى بن أدم في تحديد معنى احياء الأراضي ، « وذلك بأن يستخرج فيها عيناً أو قليباً ، أو يسوق اليها الماء ، وهي أرض لم تزرع ، ولم تكن في يد أحد قبله ، يزرعها أو يستخرجها حتى تصلح للزرع ، فهذه لصاحبها أبداً »[17] .

ويوضح أبو يوسف ، بشكل اكثر وضوحاً وتحديداً أراضي الموات واحياءها فيقول : « فأذا لم يكن في هذه الأرضيين — أراضي الصلح والعنوة أثر بناء ولا زرع ، ولم تكن فيئاً لأهل القرية ، ولا مسرحاً ، ولا موضع مقبرة ، ولا موضع محتطبهم ، ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم وليست بملك لأحد ، ولا في يد أحد ، فهي موات ، فمن أحياها أو أحيا منها شيئاً فهي له »[18] .

وقد شجع الرسول (ص) كل من يقوم بأحياء أرض الموات وزرعها على تملكها ، كما منع كل ظالم من التعدي على صاحب الأرض التي قام باحيائها ، فمن ذلك قوله (ص) : « من أحيا أرضاً ميتة فهي له ، وليس لعرق ظالم[19] حق »[20] .

١٧ـ أنظر : يحيى بن أدم ، كتاب الخراج ، ص٨٦ .

١٨ـ أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ص٦٣ — ٦٤ .

١٩ـ العرق الظالم : هو أن يجيء بالرجل الى أرض قد أحياها رجل قبله ، فيغرس فيها غرساً غصباً ، أو يزرع ، أو يحدث فيها شيئاً يستوجب به الأرض .

٢٠ـ انظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص٦٤ .

كما شجع الرسول (ص) كل من يحيي أرضا ميتة على تملكها، يزرعها ويزارعها ويؤاجرها ويكري منها الانهار ويعمرها مما فيه مصلحتها[21] .

ومن هذا النص ، نستطيع أن ندرك ، أن الرسول (ص) لم يغفل الأنهار وأهميتها وضرورة العناية بها ، خاصة القيام بكريها ، وعملية الكري ـ كما هو معروف ـ تشكل جانباً مهماً من جوانب شؤون الري الكبرى ...

وقد أذن الرسول (ص) بامتلاك الأرض التي يقوم صاحبها باحيائها . ويروى عنه قوله (ص) : « من أحيا أرضاً ميتة فهي له ، فهذا اذن من رسول الله (ص) فيها للناس ، فأن مات فهي لورثته ، وله أن يبيعها ان شاء »[22] ..

لقد قام الرسول (ص) بتطبيقات عملية لجميع الأسس والقواعد التي وضعها بخصوص المياه وتنظيمها ، وبخصوص الأرض وأحياء الموات منها ، وقد تجلت تطبيقاته العملية هذه بمنح قطع من الأراضي لعدد من أصحابه وذلك على شكل ملكيات صغيرة ...

ولدينا من الشواهد والنصوص التاريخية ما يشير الى ذلك . فقد أقطع علياً ، وأبا بكر ، وعمر ، وحمزة بن النعمان العذري ،

٢١ـ أنظر : نفسه ، ص٦٥ .

٢٢ـ انظر : يحيى بن ادم ، كتاب الخراج ، ص٨٦ .

ومجاعة بن مرارة اليمامي ، وفرات بن حيان العجلي ، كما أقطع أناساً من مزينة أو جهينة ، وقد شملت اقطاعاته هذه مختلف أنحاء الجزيرة العربية[٢٣] ..

لاشك أن كل ذلك كان يستوجب اعمار هذه القطع من الأراضي واحياءها ، وذلك بانشاء العديد من مشاريع الري عليها من شق الترع والقنوات ، أو الدوالي والغروب ، أو بحفر الآبار والعيون ..

وبذلك ، فان الرسول الأعظم (ص) قد أحدث ثورة زراعية كبرى شملت مختلف أنحاء الجزيرة العربية ، فعم الرخاء الأقتصادي ربوع المجتمع العربي الأسلامي الجديد ..

لقد كان لجميع هذه الأسس والقواعد والتطبيقات العملية التي وضعها الرسول الكريم (ص) ، أكبر حافز ، وأعظم دافع لخلفائه من بعده الى أن يسيروا على هديه ، ويبتكروا أسساً وقواعد جديدة شملت مختلف مناحى شؤون الري وذلك تبعاً للظروف الجديدة التي واجهتهم ، خاصة : بعد أن اندفعت الجيوش العربية الأسلامية لتحرير الأرض العربية ، ومنها أرض العراق وسهوله ، ما بين الرافدين من نير الفرس والروم ، وهذا ما سوف نكشف عنه من خلال هذا البحث .

٢٣ـ راجع تفاصيل ذلك في كتابنا : الزراعة والأصلاح الزراعي ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص٣٢ ـ ٣٥ ..

العهد الراشدي ١١ هـ ـ ٤٠ هـ / ٦٣٢م ـ ٦٦٠م

واجه الخلفاء الراشدون ظروفاً جديدة ، لعبت دوراً مهماً في التحولات الزراعية وفي انشاء العديد من مشاريع الري .

ويمكن حصر هذه الظروف الجديدة في اتجاهين جوهريين خاصة فيما يتعلق بسهول وادي الرافدين :ـ

الاتجاه الأول : ويتمثل في تحرير العرب المسلمين لسهول وادي الرافدين ـ العراق الجنوبي والجزيرة الفراتية[٢٤] من نير الأحتلالين الفارسي (الساساني) ، والبيزنطي (الرومي) ...

والاتجاه الثاني : وكان يتمثل في وجود أنظمة وتقاليد ساسانية وبيزنطية متغلغلة في مناطق سهول وادي الرافدين ، فكان على الخلفاء الراشدين مجابهة هذه الأنظمة والتقاليد وتقويمها وفق ما كانوا

٢٤ـ المقصود هنا بدراستنا لتاريخ الري في سهول الرافدين ـ هو العراق بحدوده الجغرافية في الوقت الحاضر ، والذي كان يشمل في الفترة التي نقوم بدراستها ـ العراق الجنوبي ، والجزيرة الفراتية ، حيث يخترقهما دجلة والفرات من الشمال الى الجنوب مع روافدهما ، والسهول المحصورة بينهما ، والممتدة على جانبيهما الشرقية والغربية ...

يحملون من مبادىء عربية اسلامية جديدة ، ومن سوابق أرسى قواعدها لهم الرسول (ص) ، وقد تركزت هذه السياسة التقويسية على كاهل الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب (١٣هـ ـ ٢٣هـ / ٦٣٤م ـ ٦٤٤م) ، ما دام تحرير سهول وادي الرافدين قد تم في خلافته ..

لقد خرج الأنسان العربي المسلم من شبه الجزيرة العربية وهو يحمل في أعماقه مبادئه الدينية الأسلامية الجديدة ، فجابه بذلك عالماً واسعاً تسوده أنظمة وتقاليد ساسانية فارسية ، ورومية بيزنطية، فاستطاع بثاقب فكره وقوة شخصيته ، وايمانه بمبادئه ، أن يهضم ما أمكنه هضمه بما فيه الخير والصلاح ، وأن يطرح جانباً بما فيه الشر والفساد ، فقدم بذلك للعالم حضارة عربية ـ اسلامية اعترف كل عالم ومؤرخ منصف بأصالتها وغزارتها في مختلف حقول الحياة العلمية والفكرية والأنسانية ، وما بحثنا هذا في دراستنا لتاريخ الري في سهول الرافدين الاجزء أو انجاز قدمه العرب المسلمون على أرض الرافدين من بين انجازات عظيمة هائلة شملت كل بقعة دخلت ضمن حضيرة العالم العربي الأسلامي ...

لقد أخذ العرب المسلمون يتدفقون نحو الأراضي الزراعية الخصبة في سهول وادي الرافدين من شماله الى جنوبه ، فيزرعون أرضه ويقيمون عليها مختلف وسائل الري ..

يروي البلاذري : ان الناس سألوا عتبه بن غزوان ــ عن البصرة ــ وهو مؤسسها ــ فأخبرهم بخصبها ، فسار اليها خلق من الناس[٢٥] ..

وقد حظي العرب المسلمون بتشجيع خلفائهم وولاتهم في احياء الأرض وزرعها ، فقد كتب الخليفة عمر بن الخطاب الى المغيرة بن شعبه كتاباً جاء فيه : أما بعد : فأن أبا عبدالله ذكر أنه زرع بالبصرة في امارة ابن غزوان ، وافتلى أولاد الخيل .... وانه نعم ما أري ، فأعنه على زرعه وعلى خيله ، فاني أذنت له أن يزرع ، ولا تعرض له الا بخير »[٢٦] .

وقد بدأ العرب بزراعة الاراضي وتشييد القرى ، وكانوا يشعرون بسعادة في عملهم الجديد ، الى درجة أنهم كانوا يرهقون خصوبة الأرض[٢٧] ، وقد حذرهم عتبه بن غزوان ــ عامل عمر على البصرة ــ من عدم اجهاد الأرض لئلا تزول خصوبتها[٢٨] ..

وقد شجع الخليفة عثمان بن عفان (٢٣هـ ــ ٣٥هـ / ٦٤٤م ــ ٦٥٦م) العرب على الزراعة في بلاد الشام والجزيرة الفراتية . « فلما ولي معاوية الشام والجزيرة لعثمان بن عفان ، أمره أن ينزل العرب

٢٥ــ انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٣٨ ..
٢٦ــ انظر : نفسه ، ص٣٤٦ .
٢٧ــ انظر : الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٥٩ ..
٢٨ــ انظر : ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، جـ ١ ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ص ٢٥٣ .

مواضع نائية عن المدن والقرى ، ويأذن لهم في اعتمال الأرضيين التي لا حق فيها لأحد[٢٩] » ...

ولم يأل الخليفة علي بن أبي طالب (٣٥هـ ـ ٤٠هـ / ٦٥٦م ـ ٦٦٠م) جهداً في تشجيع العرب على العمل في الحقل الزراعي فقد جاءه رجل قام بزرع أرض قد خربت ، فقال له علي : كل هنيئاً ، وأنت مصلح غير مفسد ، ومعمر غير مخرب »[٣٠] .

هذه بعض الشواهد والدلائل لما كان يحمله العرب المسلمون في مجالات الحقل الزراعي ، وسوف تتحدث عن اهتمام العرب البالغ بالزراعة ، وانشاء العديد من مشاريع الري على كل بقعة من بقاع سهول الرافدين ...

لقد اتجهت سياسة الخليفة عمر بن الخطاب ـ وفي ضوء الأسس والمبادىء التي أرسى قواعدها الرسول (ص) ـ صوب العناية الفائقة بالنهرين العظيمين دجلة والفرات ، فقد أبدى توجيهاته القيمة في تنظيم مياه هذين النهرين التوأمين ...

فقد روي عن الخليفة عمر قوله بهذا الخصوص ! « المسلمون جميعاً شركاء في دجلة والفرات ، وكل نهر عظيم نحوها أرادوا يستقون منه ، ويسقون الشفة والحافر والخف ، وليس لأحد أن يمنع ، ولكل قوم شرب أرضهم ، ونخلهم وشعيرهم ، لايحبس الماء

---

٢٩ ـ انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .
٣٠ ـ انظر يحيى بن ادم ، كتاب الخراج ، ص ٩٥ ..

عن أحد دون أحد ، وان أراد رجل أن يكري نهراً في أرضه من هذا النهر الأعظم ، فأن كان من ذلك ضرر في النهر الأعظم ، لم يكن له[٣١] .

ومن هذا النص نستطيع أن ندرك مدى الأهتمام البالغ الذي أبداه الخليفة عمر في الأستفادة من مياه هذين النهرين العظيمين دجلة والفرات في السقي والأرواء الزراعي لمختلف أنواع المحاصيل الزراعية من نخل وشعير ، كما أكد ضرورة كري هذين النهرين ، أو كري أي نهر فرعي يخرج منهما ، اذا استوجب ذلك ضرورة الكري ، ودون أن يحدث ذلك أي ضرر بالنهرين العظيمين ..

ان اهتمام الخليفة عمر بهذين النهرين ، والأراضي السهلية المحيطة بهما ، دفعه الى القيام بتطبيقات عملية ، تجلت بالقيام في أعظم عملية مسح لأراضي هذين النهرين ، وخاصة سهوله الجنوبية المعروفة « بسواد العراق »[٣٢] .

٣١– أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٧٣ .

٣٢– سواد العراق : وهو الذي حرره العرب المسلمون على عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) من الاحتلال الساساني الفارسي ، سمي بذلك لسواده – أي لخضرته – بالزرع والاشجار ، لان الخضرة عند العرب تقارب السواد .
ابن منظور الخزرجي ، لسان العرب ، مادة (سود) .
ولان العراق تاخم جزيرة العرب التي لا زرع فيها ولا شجر ، وكانوا اذا خرجوا من ارضهم اليه ظهرت لهم خضرة الزرع والاشجار ، وهم يجمعون بين الخضرة والسواد في الاسامي .
انظر : ابن خرداذبة المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ ، ص ٥ .

مسح الأراضي

المسح العام :

لقد كان واضحاً أن عملية مسح أراضي سواد العراق تحتاج الى دراية وخبرة في معرفة طبيعة سطح الأرض ، وعلى حد قول الخليفة عمر : « فقد بان لي الأمر ، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ، ويضع على العلوج ما يحتملون ... فأجمعوا على عثمان بن حنيف . وقالوا : تبعثه الى أهم ذلك ، فأن له بصراً وعقلا ، فأسرع اليه عمر فولاه مساحة أرض السواد »[٣٣]

وقد بعث عمر حذيفة بن اليمان الى ما وراء دجلة ، وبعث عثمان بن حنيف الى ما دونه[٣٤] ...

وبذلك عين عمر بن الخطاب هذين الخبيرين من الصحابة لمسح أراضي السواد ، ولأحصاء أهله ولتقدير الخراج والجزية ، وأمرهما أن لا يحملوا أحداً فوق طاقته[٣٥] ...

٣٣ـ أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص٣٦ .
وقد بلغت مساحة السواد ستاً وثلاثين ألف ألف جريب (ست وثلاثين مليون جريب) .
أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٦٨ .
الجريب : كمقياس للأرض يساوي شرعاً في أوائل العصور الوسطى وفي أوجها ١٠٠ قصبة مربعة ، وبذلك يكون الجريب على وجه الدقة ١٥٩٢ مترا مربعا .. والقصبة = ٣٩٩سم .
انظر : فالترهنز ، المكاييل والاوزان الاسلامية ، ترجمة الدكتور كامل العسلي ، منشورات الجامعة الأردنية ، ١٩٧٠ ، ص٦١ .

٣٤ـ انظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص٢٦ .

٣٥ـ انظر : اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ، النجف ، ١٩٣٩ ، ص١٣٩ .

وقد كان هذا هو المسح العام لأراضي السواد ..

المسح المحلي :

ويبدو أنه قد حدث مسح محلي آخراً . فقد عين الخليفة عمر أبا موسى الأشعري على ولاية البصرة سنة ست عشرة ، ويقال سنة سبع عشرة للهجرة . فأستقرى كور دجلة ، فوجد أهلها مذعنين بالطاعة ، فأمر بمساحتها ، ووضع الخراج عليها على قدر احتمالها[٣٦] ..

لقد ترتبت على عمليتي المسح العام والمحلي نتائج مهمة تجلت آثارها في انشاء العديد من مشاريع الري في السهل الجنوبي من سواد العراق ، فقد كشفت عن طبيعة الأراضي ، والأنهار التي تجري فيها ، كما أدت الى معرفة المناطق التي تحتاج الى حفر نهر أو شق قناة ، أو اقامة سد أو جسر ، والى معرفة الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة ، اضافة الى كري الأنهار ومعرفة أماكن بثوقها ، واقامة المسنيات والبريدات عليها[٣٧] ... مثال ذلك : ان الخليفة عمر بن الخطاب عندما بعث حذيفة بن اليمان لمسح السواد قام بمسح سقي دجلة ، وان قناطر حذيفة نسبت اليه ، وذلك أنه نزل عندها ، ويقال حددها[٣٨] ...

٣٦ــ أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٤١ .

٣٧ــ البثوق : جمع بثق ، وهو ما يخرقه الماء في جانب النهر ..
البريدات : في الأصطلاح ، مفاتيح الماء ...
انظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص١١٠ .

٣٨ــ انظر : البلاذري ، فتوح البدان ، ص٧٢١ .

اسهام بيت المال في احيـاء الأرض ومشاريع الري

اعتمدت عملية احياء أرض الموات وانشاء بعض مشاريع الري البسيطة كحفر جدول أو نهر صغير على جهود فردية يقوم بها صاحبها ، ولكن بعد دخول مساحات واسعة من الأراضي ـ بعد تحريرها ـ ضمن حضيرة العالم العربي الأسلامي ، وما في هذه الأراضي من أنهار عظيمة كبيرة ، لذا استوجب ذلك من الدولة أن تأخذ على عاتقها القيام بأنشاء مشاريع ري متعددة ، واسهام بيت مال الدولة في الصرف والأنفاق ..

يبين أبو يوسف بهذا الخصوص مدى اسهام بيت مال الدولة وخاصة في أرض السواد فيقول : « اذا احتاج أهل السواد الى كري أنهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم ، وكانت النفقة من بيت المال ، ومن أهل الخراج ، ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج ... وأما الأنهار التي يجرونها أو يكرونها الى أرضهم ومزارعهم ، وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم ، وما اشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ، ليس على بيت المال من ذلك شيء . وأما البثوق والمسنيات والبريدات التي تكون في دجلة

والفرات ، وغيرها من الأنهار العظام ، فأن النفقه على هذا كله من بيت المال ، لايحمل على أهل الخراج من ذلك شيء ، لأن مصلحة هذا على الأمام خاصة ، لأنه أمر عام لجميع المسلمين ، فأن النفقة عليه من بيت المال ، لأن عطب الأرضيين من هذا أو شبهه ، انما يدخل الضرر من ذلك على أهل الخراج »(٣٩) ....

ويربط أبو يوسف في كتابه « الخراج » بين مسؤولية بيت مال الدولة في الصرف والأنفاق على مشاريع الري خاصة على الأنهار العظيمة ، وبين سياسة الخليفة عمر بن الخطاب تجاه أهل الخراج في سواد العراق وتطبيقه سياسة العدل والأنصاف ورفع الظلم والحيف عنهم .. فيقول : « وان عمر بن الخطاب كان يجبي السواد مع عدله في أهل الخراج وانصافه لهم ، ورفعه الظلم عنهم »(٤٠) .

٣٩- انظر : ابو يوسف ، كتاب الخراج ، ص١١٠ .
٤٠- انظر نفسه ، ص١١١ .

مشاريع الري في سهول الرافدين

لعب الخلفاء الراشدون وولاتهم دوراً مهماً في انشـاء العديد من مشاريع الري شملت مختلف أنحاء سهول الرافدين من شمالـه الى جنوبه ، وتناولت حفر الأنهار ، وشق الجداول ، وفتح القنوات، والترع ، وانشاء القناطر والجسور ، والعناية الفائقـة بخصوبـة التربة ، وازالة الشوائب والملوحة عنها وما نطلق عليه في الوقت الحاضر بعمليات البزل .....

وسوف نعرض لهذه المشاريع المتعددة وفقاً للتسلسل الزمنـي في عهد كل خليفة من الخلفاء الراشدين ، اعتماداً على النصوص التاريخية المستقاة من مصادرنا الأولية .. فقد كـان لنصوصهـم التاريخية ووثائقهم التي دونوها في بطون كتبهم ومؤلفاتهم الأثـر الكبير في حفظ تراثنا العلمي العربي الأسلامي ، وخاصة في مجالات الري ــ موضوع بحثنا ودراستنا .

خلافة عمر بن الخطاب

١٣ هـ ـ ٢٣ هـ / ٦٣٤ م ـ ٦٤٤ م

سواد العراق

سبق أن أشرت الى عملية المسح العام التي تمت في خلافة عمر بن الخطاب ، وآثارها وأبعادها في انشاء مشاريع ري في سواد العراق ، وذكرت أن حذيفة بن اليمان كان مشاركاً بارزاً في عملية المسح هذه ، وخاصة في منطقة « سقي دجلة » ، وأن هذا الخبير العربي ، قام بأنشاء قناطر على نهر دجلة ، حيث نسبت اليه ، ولم يكتف هذا الخبير العربي بذلك فقط بل انه نزل عندها وحددها وعمل على حفظها وصيانتها [٤١] ....

وفي البصرة

تشكل البصرة جزءاً مهماً من سواد العراق في سهله الجنوبي وتتميز بأراضيها الخصبة الزراعية ، ولكنها كانت في الوقت نفسه

٤١ـ راجع ما ورد في اعلى هامش ٣٨ من هذا البحث .

عرضة لخطر الفياضانات التي كانت تسبب تكوين الأهوار والمستنقات التي أطلق عليها اسم « البطائح »[٤٢] .. وبذلك وجه الخلفاء الراشدون وولاتهم عنايتهم الكبرى الى استصلاح أراضيها وحفر الأنهار العديدة فيها .

وقد سبق أن أشرت أيضاً الى المسح المحلي الذي قام به أبو موسى الأشعري والى الخليفة عمر بن الخطاب على البصرة ، وان هذا الوالي قام بجولة شملت الكور والمناطق الواقعة على نهر دجلة ، وبعد هذه الجولة الأراوئية ، وتلبية لرغبات بعض زعماء أهل البصرة ، وبأمر من الخليفة عمر ، قام أبو موسى الأشعري بحفر أنهار عديدة ، كان منها التخلص من السباخ والمستنقعات ، وتحويل قسم كبير من أراضيها الى أراض زراعية خصبة ... والى هذا

٤٢- البطائح : مفردها « بطيحه » ، استعملها المؤرخون وخاصة في العصر العباسي ، وأطلقوا تسميتها على مساحات واسعة من الأراضي المغطاة بالمستنقعات والمياه الراكدة ، وتقع في المناطق الواطئة من مجرى نهري دجلة والفرات ، بين الكوفة وواسط شمالا ، والبصرة جنوباً ..

See, E.i, 2nd., EDITION, SALIH-AL-ALI, ART., AL-BATIHA

ويحدد « لسترنج » حدود هذه البطائح ، والتي كانت تغطي مساحات واسعة من الأراضي ، الخمسين ميلا عرضاً ، وثمانين ميلا طولا ، وتتجه جنوباً حتى تحاذى البصرة ..

تشير مصادرنا الأولية ، كما جاء في ابن الفقيه الذي يذكر ! أن الأحنف بن قيس – وهو أحد زعماء البصرة – شكا ضعف حالة البصرة ، وملوحة مياهها ، فأمر الخليفة عمر واليه أبا موسى الأشعري بحفر نهر فيها »[٤٣] ، وأمره أيضاً بحفر نهر أخر ، وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزني – أحد أصحاب الرسول (ص)– فنسب اليه ، فقال الناس ، نهر معقل »[٤٤] .

وفي البصرة أيضاً ، قام أبو موسى الأشعري بحفر نهر الأبله ، موضع الأجانة الى البصرة .. فوهته من دجلة فوق الأبله بأربعة فراسخ ، وكان يجرى في سباخ لاعمارة على حافاته »[٤٥] ..

وكان لدجلة العوراء – وهي دجلة البصرة – خور ، والخور طريق للماء لم يجره أحد ، يجري فيه ماء الأمطار اليها ، ويتراجع ماؤها عند المد ، وينضب في الجزر ، وكان طوله قدر فرسخ ، وكان لحده مما يلي البصرة ، غورة واسعة تسمى في الجاهلية الأجانة ، وسمته العرب في الأسلام الجزارة ، وهو على مقدار ثلاثة فراسخ ، فلما أمر عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري أن يحفر لأهل البصرة

٤٣– انظر : ابن الفقيه ، كتاب مختصر البلدان ، ليدن ، ١٣٠٢ ، ص١٩٨ ..

٤٤– انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٥٢ ..

٤٥– انظر : نفسه ، ص٣٥٢ .

نهراً ، ابتدأ الحفر من الاجانه ، وقاده ثلاثة فراسخ حتى بلغ بـه البصرة ، فصار طول نهر الأبلة أربعة فراسخ »[٤٦] ..

لم تقتصر عملية إنشاء مشاريع الري في خلافة عمر بن خطـاب على مناطق سواد العراق بصورة عامة ، والبصرة بصورة خاصة ، وانما امتدت لتشمل مناطق أخـرى على نهر الفـرات ، والجزيرة الفراتية ..

ففي مدينة الأنبار ــ وهي محافظة الرمادي حالياً ــ والواقعة على نهر الفرات ــ « سأل دهاقينها سعد بن أبي وقاص أن يحفر لهم نهراً ، كانوا سألوا عظيم الفرس حفره لهم ، فكتب الى سعد بن عمرو بن حرام يأمره بحفره لهم ، فجمع الرجال لذلك فحفروه ، حتى انتهوا الى جبل لم يمكنهم شقه فتركوه »[٤٧] ..

وفي الجزيرة الفراتية ، كان من جملة شروط عياض بن غنم على أهل الرها ، أصلاح الجسور والطرق فيها »[٤٨] .....

٤٦ــ أنظر : نفسه ، ص٣٥١ .

٤٧ــ أنظر : نفسه ، ص٣٥١ .
ولما ولي الحجاج بن يوسف العراق جمع الفعله من كل ناحية ، وقال لقومه : أنظروا الى قيمة ما يأكل رجل من الحفارين في اليوم ، فأن كان وزنه مثل وزن ما يقلع فلا تمتنعوا من الحفر ، فأنفقوا عليه حتى استتموه ، فنسب ذلك الجبل الى الحجاج ، ونسب النهر الى سعد بن عمرو بن حرام .
أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٧٣ ــ ٢٧٤ .

٤٨ــ أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٧٨ ــ ١٧٩ .

خلافة عثمان بن عفان

٢٣ هـ ـ ٣٥ هـ / ٦٤٤ م ـ ٦٥٦ م

وفي خلافة عثمان بن عفان إستمرت عملية إنشاء العديد من مشاريع الري في سهول وادي الرافدين ، تمثلت في حفر الأنهار ، وشق القنوات ، واقامة القناطر والجسور ..

ففي خلافته تم إنجاز حفر نهر الأبلة في البصرة ، الذي أشرنا الى حفره في ولاية أبي موسى الأشعري ، فقد أشار عثمان بن عفان على عبدالله بن عامر ـــ والى البصرة ـــ أن ينفذ حفر نهر الأبلةَ حيث انظم حتى يبلغ به البصرة ، ولما شخص ابن عامر الى خراسان ، واستحلف زياد بن أبي سفيان(٤٩) ، أقر حفر أبي موسى الأشعري

٤٩ـ وكان زياد بن ابي سفيان والياً على الديوان وبيت المال في خلافة عثمان بن عفان .

انظر : البلادري ، فتوح البلدان ، ص٣٥١ .

على حاله ، وحفر النهر من حيث انظم حتى بلغ به البصرة ، وولى ذلك عبدالرحمن بن أبي بكرة[٥٠] ...

وحفر عبدالله بن عامر نهره الذي عند دار فيل ، وهو الذي يعرف بنهر الأساورة ، وقال بعضهم الأساورة حفروه[٥١] ... وان عبدالله بن عامر أقطع عبدالله بن عمير بن عمرو بن مالك الليثى ، وهو أخوه لأمه دجادجة بنت أسماء بن الصلت السلمية ثمانية آلاف جريب ، فحفر لها النهر الذي يعرف بنهر ابن عميرة[٥٢] ....

وفي الجزيرة الفراتية ، حيث كان بها جسر منبج ، ولم يكن الجسر يومئذ انما اتخذ في خلافة عثمان[٥٣] ...

وفي سواد العراق ، أقام جابر المزني قنطرة فيه ، وكان عاملا لعثمان بن عفان على الخراج[٥٤] ....

٥٠- انظر : نفسه ، ص٣٥١ .

٥١- انظر : نفسه ، ص٣٥٣ ، وص٣٦٦ .

٥٢- انظر ، نفسه ، ص٣٥٣ - ٣٥٤ .

٥٣- انظر ، نفسه ، ص١٥٥ .

٥٤- انظر : الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، طبعة ليدن ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، جـ٤ ، ص٣٥٨ .

خلافة علي بن أبي طالب

٣٥هـ - ٤٠هـ / ٦٥٦م - ٦٦٠م

ولايقل الخليفة الراشدي الرابع ـ علي بن أبي طالب ـ أهمية عمن سبقه من الخلفاء الراشدين . في احيـاء الارض ، وتشجيـع الزراعة ، واقامة مشاريع الري ، تمثل ذلك في حفر الانهار، وتفقد أراضي سواد العراق ، وكوره ، وانهاره من دجلة والفـرات ... ويشير اليعقوبي الى أن علي بن أبي طالب أمر واليه قرضة بن كعب الانصاري بحفر نهر لأهل الذمة[٥٥] . وعلى الرغم من أن اليعقوبي لم يذكر اسم هذا النهر ، ومكان حفره ، لكنه يشكل دليلا علـى مدى اهتمام علي بن أبي طالب بأهل الذمة من جهة ، وحفر الانهار من جهة أخرى .

ويذكر أبو يوسف : « أن علي بن أبي طالب كتب الى كعب بن مالك وهو عامله : أما بعد ، فاستخلف على عملك ، وأخرج في

٥٥- انظر : اليعقوبـي ، تاريـخ ، جـ٢ ، ليدن ، ١٨٨١ - ٨٢ ، ص٢٤٠ .

طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض السواد كورة كورة . فتسألهم عن عمالهم ، وتنظر في سيرتهم ، حتى تمر بمن كان منهم فيما بين دجلة والفرات ، ثم ارجع الى البهقباذات[٥٦] ، فتول معونتها ، وأعمل بطاقة الله فيما ولاك منها »[٥٧] .

هكذا بذل الخلفاء الراشدون وولاتهم جهودا عظيمة في تطوير الزراعة ، وتقدمها ، واتباع أساليب وطرق جديدة في المسح والأرواء ، واقامة العديد من مشاريع الري في سهول وادي الرافدين .. فوضعوا بذلك اساساً وقواعد متينة لمن أتى بعدهم من الخلفاء والولاة ..

فلا غرو ــ والحالة هذه ــ أن يعد العهد الأموي استمراراً ومتمماً للعهد الراشدي في بناء وتطوير الزراعة ، والاهتمام البالغ في مختلف شؤون الري ، شملت كل بقعة من بقاع سهول وادي الرافدين ..

٥٦ــ بهقباذ : وهي الكور التي تقع أراضيها بين دجلة والفرات في وسط العراق .

٥٧ــ انظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص١١٨ .

العهد الأموي ٤١ هـ ـ ١٣٢ هـ / ٦٦١ م ـ ٧٥٠ م

استهـلال :

جابه الخلفاء الأمويون ـ منذ قيام حكمهم ـ ظروفاً ماليـة حرجة ، كانت وليدة أمور سياسية وعسكرية وعمرانية ...

فقد ألمت بمعاوية بن أبي سفيان أزمة مالية خانقـة في بداية حكمه ، كانت نتيجة الصراع السياسي والعسكري مع الخليفـة الراشدي علـي بن أبي طالب ، فانحسـرت عنـه أمـوال فارس والعراق[٥٨] ..

كما انحسرت عنه واردات مصر، نتيجة شـرط عمرو بـن العاص الذي فرضه على معاوية ، وذلك بأن تكون واردات مصـر « طعمة خالصة له » مقابل وقوفه الى جانبه في صراعه مع الخليفـة علي بن أبي طالب[٥٩] ...

كما فقد معاوية بن أبي سفيان أموال فلسطين ، بعد أن تغلب ناتل بن قيس الجذامي عليها ، وأخذ بيت مالها[٦٠] ...

٥٨ـ أنظر التفاصيل : الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، الطبعـة الحسينية ، جـ٦ ، ص٩٢ ـ ٩٦ ..

٥٩ـ أنظر : اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٢٠٦ .

٦٠ـ أنظر : الطبري ، جـ٦ ، ص١٨٦ .

اضافة الى ذلك ، فقد واجه معاوية خطراً جديداً جاءه من الخارج ، فقد بلغه أن طاغية الروم زحف بجموع كثيرة ، فخاف معاوية أن يشغله ، فصالحه على مائة ألف دينار ، وكان ذلك في سنة اثنتين وأربعين للهجرة[٦١] ..

ولو ألقينا نظرة شاملة وعامة على العصر الأموي خلال فترة حكمهم ، نرى أن الأمويين كانوا بحاجة ماسة الى الاموال الكثيرة ، لاصطناع الاحزاب ، وتهدئة الثورات ، وسد حاجات البلاط والفتوحات[٦٢] ...

كذلك شهد العصر الأموي ازدهاراً كبيراً في النمو العمراني تمثل ذلك في بناء القصور ، والمدن ، وبناء المساجد والجوامع ، مثال ذلك ، بناء قبة الصخرة ، والمسجد الاقصى في بيت المقدس ، والجامع الأموي في دمشق في خلافتي عبدالملك بن مروان وابنه الوليد[٦٣] ..

٦١ـ انظر : اليعقوبي ، جـ٢ ، ص٢٠٦ .

٦٢ـ أنظر : د . عبدالعزيز الدوري ، العصر العباسي الأول ، بغداد ، ١٩٤٥ ، ص٨ ـ ٩ .

٦٣ـ تفاصيل ذلك في كتابينا :ـ

١ ـ تاريخ مدينة القدس ، بغداد ، ١٩٧٢ ، ص١٠٠ـ١٠٥ .

٢ ـ ومعالم التراث العربي والأسلامي في فلسطين ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص٨١ـ١٠٢ ..

أن أوج الفتوحات العربية الاسلامية قد تحققت في عهدهم !
فمن الشرق امتدت الفتوحات الى أواسط آسيا وحدود الصين والى
بلاد الهند والسند •• ومن جهة الغرب ، شملت كل شمال أفريقيا
وبلاد الاندلس ، كما شهد عهدهم بناء أعظم أسطول بحري عربي
اسلامي في البحر الابيض المتوسط وذلك لمواجهة الاسطول البحري
البيزنطي الرومي[٦٤] ••

عالج الخلفاء الأمويون وولاتهم كل هذه الأمور والاحوال،
واتخذوا تدابير اقتصادية ومالية كانت على درجة كبيرة من الحزم
والثبات ، وقد كان على رأس هذه التدابير وأهمها ، وأكثرها نجاحا
وتقدما وازدهارا ــ هو الجانب الزراعي •••

وبهذا اتجهت سياسة معاوية بن أبي سفيان وخلفائه من بعده
ــ صوب هذا العنصر الزراعي الحيوي حيث رأوا فيه المورد المالي
الثابت والمستمر ، وقد أدركوا ما للزراعة من أهمية كبرى ، وما
تدره عليهم من مبالغ طائلة ، لذا وجهوا عنايتهم القصوى نحو
احياء الاراضي ، والعمل في الحقل الزراعي ••

وقد رأوا في سهول وادي الرافدين المعين الزراعي الذي
لاينضب ، فوجهوا قصارى جهودهم نحوها ، فعملوا على احياء
أراضيه ، وإستصفاء صوافيه ، وإستصلاح بطائحه ، وذلك بأقامة
العديد من مشاريع الري فيه •••

٦٤ــ انظر تفاصيل ذلك في كتاب فتوح البلدان ، للبلاذري ...

وكان على رأس التدابير الأقتصادية التي نهجها معاوية بن أبي سفيان تلك التي تركزت في احياء الارض واستصلاحها وزرعها، حيث رأى فيها المورد المالي الثابت والمستمر في أنقاذه من وضعه المالي المتأزم ، ولذلك وجه معاوية عنايته البالغة نحو استصفاء الصوافي ، واستصلاح البطائح الواسعة ، واحيائها وزرعها .

يقول « بروكلمان » : وقد بذل معاوية جهوداً كبيرة في تحسين الزراعة وتطويرها ، فقام بأنشاء مشاريع ري عديدة، فأحيا بذلك أراضي واسعة ، زادت من عملية الانتاج الزراعي[٦٥] ..

استصفاء الصوافي :

وقد حظيت الصوافي[٦٦] بنصيب وافر من سياسة معاوية ، وقد درت عليه مبالغ طائلة ، فاقت أضعافا مضاعفة ما كانت تدره

٦٥ـ SEE, C. BROCKEL MAN, HISTORY OF THE ISLAMIC PEOPLES, ENGLISH TRANS., FROM GERMAN, LONDON, 1949, P.,373.

٦٦ـ الصوافي : وهي الأراضي الخاصة بالخليفة . وتدعى « صوافي الأمام » ، وهي ملك الدولة .. وتعود عملية استصفاء الصوافي الى عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ، حيث أصفى من أهل السواد عشرة أنواع منها هي :

١ ـ أراضي كسرى .
٢ ـ أراضي غيره من أفراد العائلة المالكة .
٣ ـ أوقاف دائرة البريد وطرق البريد .
٤ ـ أوقاف بيوت النيران .
٥ ـ الآجام .

في خلافة عمر بن الخطاب[٦٧] .. كما يشير الى ذلك اليعقوبي في قوله : « فبلغت جبايته خمسين ألف ألف درهم (خمسين مليـون درهم) ، من أراضي الكوفة وسوادها »[٦٨] ..

وقد ولى معاوية مولاه عبدالله بن دراج خراج العراق ، وكتب اليه : « احمل الي من مالها ما أستعين به ، فكتب ابن دراج يعلمه أن الدهاقين أعلموه ، أنه كان لكسرى وآل كسرى صوافي يجتبون مالها لأنفسهم ، ولاتجري مجرى الخراج . فكتب اليه : أن احص تلك الصوافي واستصف ، واضرب عليها المسنيـات ... فضـرب عليها المسنيات ، واستصفاه لمعاوية ، فبلغت جبايته خمسين ألف ألف درهم من أراضي الكوفة وسوادها ... وكتب معاوية الـى عبدالرحمن بن أبي بكرة بمثل ذلك في أرض البصرة »[٦٩] ..

---

٦ – أراضي من قتل في الحرب .
٧ – مغايض الماء والمستنقعات ، كالبطيحة في جنوب العراق
٨ – أراضي من هرب في فترة الحرب .
٩ – كل صافيه اصطفاها كسرى .
١٠ الأرحاء ، ولعله تحريف لكلمة الأرحاء ، أو الطواحين .

انظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص٢٧ ، والبلاذري ، فتوح ، ص٢٧٢ . والدكتور عبدالعزيز الـدوري ، النظـم الاسلامية ، بغداد ، ١٩٥٠ ، ص١٢٠ .

٦٧– وقد بلغ خـراج ما استصفاه عمر بن الخطاب (رض) (سبعة ملايين درهم) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٧٢ .

٦٨– انظر : اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٢٧٠ .

٦٩– انظر : نفسه ، جـ٢ ، ص٢٧٠ .

استصلاح البطائح[70] :

تشكل « البطائح » صنفاً من أصناف الصوافي ، وهي كل مغيض ماء ومستنقع . وتشمل مساحات واسعة من الاراضي[71] .. لذلك اتجهت سياسة معاوية صوب هذه البطائح ، وعمل على استصلاحها وزرعها ، فدرت عليه مبالغ طائلة أيضاً .. ويشير

٧٠ـ ويعود تكوين البطائح الى العهد الساساني الفارسي ، فقد كانت دجلة تصب الى دجلة البصرة ، والتي تدعى العوراء – في انهار متشعبة .. فلما كان زمان قباذين فيروز انبثق في أسافل كسكر بثق عظيم ، فأغفل حتى غلب ماؤه ، وغرق كثيراً من اراضي عامرة ، وكان قباذ واهنا ، قليل التفقد لامره .
ولما كانت السنة التي بعث فيها رسول الله (ص) عبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى أبرويز (فيروز) ، وهي سنة سبع من الهجرة ، وقيل سنة ست ، زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة لم ير مثلها قبلها ولا بعدها ، وانبثقت بثوق عظام ، فجهد أبرويز ان يسكرها ، فغلبه الماء ، ومال الى موضع البطائح ، فطفا على العمارات والزروع ، فغرق عدة طساسيح ... ولم يقدر للماء حيلـه ، ثم دخلت العرب أرض العـراق ، وشغلت الأعاجـم بالحروب ، فكانت البثوق تنفجر ، فلا يلتفت اليها ، فأتسعت البطيحة وعرضت .

٧١ـ ويحدد لسترنج حدود هذه البطائح بخمسين ميلا عرضاً ، وثمانين ميلا طولا ، وتتجه جنوباً حتى تحاذى البصرة .
واذا اخذنا بهذه الحدود ، فتكون مساحة البطائح أربعة آلاف ميل مربع ..

البلاذري ، ويؤكده الماوردي .. « أن غلة ما استخرج من البطائح قد بلغ خمسة ملايين درهم سنوياً » فقد ولى معاوية مولاه عبدالله بن دراج خراج العراق ، واستخرج له من الارضين بالبطائح ما بلغت غلته خمسة ألاف ألف درهم ، وذلك أنه قطع القصب، فغلب الماء بالمسنيات »(٧٢) ..

وفي ضوء هذه التدابير والمنجزات الزراعية ، استطاع معاوية أن يؤسس — وعلى حد تعبير « دنيت » — وزارة مالية بالمفهوم الحديث(٧٣) ...

ونتيجة لهذه الاصلاحات الزراعية الواسعة التي رافقها اقامة مشاريع ري في سواد العراق ، وسهول وادي الرافدين الجنوبية، استقر خراج العراق ، وما يضاف اليه مما كان في مملكة الفرس في أيام معاوية بـ٦٥٥ مليون درهم(٧٤) ...

٧٢— انظر : البلاذري ، فتوح ، ص٢٩١ ، والماوردي ، الاحكام السلطانية ، ط (١) ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص١٧٩ .

٧٣— See, Danial C.Dennett, Conversion and poll-tax in eary Islam, Cambridge, 1950, p., 51.

٧٤— انظر : اليعقوبي ، جـ٢ ، ص٢٢١ .

استمرار عملية استصلاح البطائح بعد معاوية :

وقد أدرك خلفاء بني أمية وولاتهم ــ بعد معاوية ــ ما للبطائح من أهمية كبرى في الحقل الزراعي ، وماتدره من فوائد وأموال طائلة لهم ، لذا استمروا باحيائها واستصلاحها ، وقد تجاوز ذلك حتى شمل بعض المعارضين للأمويين ، فمن ذلك : أن مصعب بن الزبير الذي استحوذ على البصرة في خلافة عبدالملك بن مروان ، قد استخرج بعض أراضي البطيحة لنفسه[٧٥] .

وبرزت ظاهرة استصلاح البطائح بصورة جلية في خلافتي الوليد بن عبدالملك ، وهشام عبدالملك ..

وقد لعب « حسان النبطي » ــ مولى بني ضبة ــ كصاحبه عبدالله بن دراج ــ دوراً أساسياً في استصلاح البطائح واستخراجها ، فاستخرج للحجاج بن يوسف الثقفي أيام الوليد بن عبدالملك ، أرضين من أراضي البطيحة ، وكذلك استخرج لهشام بن عبدالملك من هذه الاراضي[٧٦] ..

٧٥ــ انظر : الدكتور عبدالعزيز الدوري ، النظم الاسلامية ، ص١٤٥ ، عن البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٥ ، ص٢٨١ .

٧٦ــ انظر : البلاذري ، فتوح ، ص٢٩١ .

وقام مسلمة بن عبدالملك بن مروان ـ في خلافة أخيه الوليد بن عبدالملك ، وولاية الحجاج بن يوسف الثقفي باستخراج أراض واسعة من البطائح ..

فقد انبثقت بثوق جديدة في أيام الحجاج على أثر انشغاله بحرب عبدالرحمن بن الاشعث الكندي ، ولم يقو الحجاج على سدها ، فكتب الحجاج الى الوليد بن عبدالملك يعلمه أنه قدر لسدها ثلاثة آلاف ألف درهم ، فأستكثرها الوليد فقال له مسلمه بن عبدالملك : « أنا أنفق عليها على أن تقطعني الارضين المنخفضة الذي يبقى فيها الماء بعد انفاق ثلاثة آلاف ألف درهم، يتولى انفاقها ثقتك ونصيحك الحجاج ، فأجابه الى ذلك ، فحصلت له أرضون من طساسيج متصلة .. فحفر السيبين ، وتألف الاكرة والمزارعين ، وعمر تلك الارضين ، وألجأ الناس اليها ضياعا كثيرة للتعزز به[77] ..

ولعل أبرز مايمكن أن نستخلصه من هذا النص التاريخي هو دور رؤوس الاموال الفردية في استصلاح الاراضي واقامة مشاريع الري ، وهو ما ندعوه في الوقت الحاضر « بالقطاع الخاص »، فقد

٧٧ـ انظر : نفسه ، ص٢٩٢ ..

شغل مسلمة بن عبدالملك رؤوس أموالـه ـ ليجني بذلك ربحـاً وفائدة ـ فقام بحفر الانهار ، وجلب الأكرة والمزارعـين ، ووفـر الآلات والأدوات الزراعية الخاصة بذلك ..

هكذا كان سواد العراق ، وسهول وادي الرافدين الجنوبية، محط أنظار الخلفاء الأمويين وولاتهم ، فقد رأوا في أرضه ومياهه خير معطاء ، وان ثروته ورخاءه هي ثروة الأمة العربية في تقدمهـا ورقيها الحضاري ـ مادام العراق جزءاً لايتجـزأ مـن الوطـن العربي .. فلا غرو ـ والحالة هذه ـ أن يسهـم العـراق عبـر فترات التاريخ العربي الاسلامي اسهاماً عظيماً وجباراً في نهضـة الامة العربية وتقدمها ورقيها وازدهارها ...

مسح الأراضي ـ ومشاريع الري
في سهول وادي الرافدين

مسح الأراضي :

سبق أن ذكرت أن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب قـام بوضع الأسس الأولى في عملية مسح أراضي سـواد العـراق ، وسهول وادي الرافدين الجنوبية ..

وقد أخذ الأمويون بمسوحات الخليفة عمر ، وعملوا علـى توسيعها وتطويرها ، وابتكروا وحدات قياسية جديدة كان لهـا أثرها الكبير في تحديد المساحات الارضية ..

وقد تميزت مسـوحات الامويـين ـ أيضـا ـ باتجاهـين أساسيين :

الأتجاه الأول : المسح المحلي :

ويتمثل بما قام به كل من زياد بن أبيـه والحجاج بن يوسف الثقفي من عملية مسح الاراضي التي تركزت حول منطقة السواد ..

وقد ابتكر زياد بن أبيه وحدة قياسية دعيت « بالذراع الزيادي »[٧٨] ...

ويشير « لوككارد » الى ذلك بقوله : ان هذين العاملين زياد والحجاج يستحقان كل تقدير واعجاب في إستعمالهما لهذه الوحدة المساحية في تنظيم أراضي هذا الاقليم »[٧٩] ..

الأتجاه الثاني ـ المسح العام :

ويشير « لوككارد » الى ذلك بقوله : ان هذين العاملين زياداً العراق في خلافة يزيد بن عبدالملك ، فقد كتب يزيد بن عبدالملك الى عمر بن هبيرة بمسح السواد ، فمسحه سنة ١٠٥ للهجرة »[٨٠].

وقد كانت لعمليتي المسح هذه أهمية كبيرة في معرفة طوبغرافية الارض ، والاماكن التي يمكن اقامة مشاريع ري متعددة في سهول وادي الرافدين ..

٧٨ـ الذراع الزيادي : وهي ذراع عرفت في صدر الأسلام ، وبها مسح زياد بن أبيه أرض العراق ، وهي عين ذراع الملك أو الذراع الهاشميه الكبرى ، أي تساوى وفق حساباتنا ٦٦ر٥سم ...

أنظر : فالنزهينز ، المكاييل والأوزان ، ص٨٨ .

٧٩ـ See. F. Lokko Gaard, Islamic Taxation in the Classic Period, Copen Hagen, 1958, p., 112-118.

٨٠ـ انظر : اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٥٧ . والبلاذري ، فتوح ، ص٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

مشاريع الري :

وسع الخلفاء الامويون وولاتهم ، وطوروا مختلف مشاريع الري في سهول وادي الرافدين التي وضعت أسسها وقواعدها خلال العهد الراشدي ...

فقد شهد العصر الأموي نشاطاً واسعاً في هذا المجال ، تجلى في حفر الانهار ، وشق القنوات والجداول واقامة السدود والمسنيات، وأحواض المياه ، وانشاء القناطر والجسور، واستصلاح التربة وتخليصها من الشوائب ...

وسوف نعرض ما كان قد شرع به خلفاء بني أمية وولاتهم ، وما قد نفذوه في كل ربع من ربوع سهول وادي الرافدين في هذا المضمار ، وذلك وفقاً للتسلسل الزمني ...

ففي خلافة معاوية بن أبي سفيان وولاية عامله زياد بن أبيه، بذلت جهود كبيرة في حفر الانهار ، وشق القنوات والجداول، واقامة السدود والمسنيات وتشييد القناطر ..

ينسب الى زياد بن أبيه حفر أنهار عديدة في منطقة البصرة .. فقد كان زياد ـ قبل أن يوليه معاوية والياً على البصرة ثم الكوفة ـ مسؤولا عن الديوان وبيت المال فيها في خلافة عثمان بن عفان ، وقد بدأ نشاطه بحفر العديد من الانهار في منطقة البصرة ، منذ ذلك الحين كما أشرنا [illegible]

وفي خلافة معاوية ، استمر نشاط زياد بن أبيه في حفر الانهار في البصرة .. وعن المدائني : ان المنذر بن الجارود العبدي ، كلم معاوية في حفر نهر الثرثار ، فكتب الى زياد فحفر نهر معقل ، فلما فرغ منه ، وأراد فتحه ، بعث زياد الى معقل بن يسار ففتحه تبركاً به لأنه من أصحاب رسول الله (ص)، فقال الناس : نهر معقل»[٨١] .

كما تم في ولاية زياد حفر أنهار عديدة ، نذكر منها : نهر دبيس ، نسب الى رجل يقال له دبيس ، وبثق الحيري ، نسب الى نبطي من أهل الحيرة ، ويقال : كان مولى لزياد .. ونهر أم حبيب، نسب الى أم حبيب بنت زياد ، ونهر حرب ، نسب الى حرب بن زياد ، ومنها ايضاً نهر مسلم ، نسب الى مسلم بن زياد بن أبي سفيان . ونهر مرة ، نسب الى مرة بن أبي عثمان مولى عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق . وحفر زياد نهر البنات ، نسب الى بنات زياد ، فقد أقطع كل بنت منهن ستين جريباً[٨٢] ..

وقد أسهم زياد بن أبيه في استصلاح بعض بطائح البصرة ، فابتاع بطيحة من رجل أقطعه اياها معاوية ــ بمائتي ألف درهم ، وحفر أنهارها وأقطع منها[٨٣] ...

٨١ــ أنظر : البلاذري ، فتوح ، ص٣٥٢ ..

٨٢ــ أنظر : نفسه ، ص٣٥٣ ــ ٣٥٧ .

٨٣ــ أنظر : نفسه ، ص٣٥٥ ــ ٣٥٦ .

وبهذا أصبحت منطقة البصرة شبكة من الانهار والقنوات والجداول . فلا غرو والحالة هذه أن تنتعش الحياة الزراعية فيها . وتصل واردتها مع كورها في ولاية زياد بن أبيه الى ستين مليون درهم[٨٤] ..

وقد سبق أن أشرنا الى أن معاوية بن أبي سفيان قد أولى عناية فائقة باستصلاح البطائح ، وذلك بأقامة السدود والمسنيات عليها . فقد عين مولاه عبدالله بن دراج على خراج العراق، فاستخرج له من الارضين بالبطائح ما بلغت غلته خمسة ملايين درهم ، وذلك أنه قطع القصب وغلب الماء بالمسنيات[٨٥] ...

ومن مشاريع الري الاخر التي أنجزت في خلافة معاوية وعلى يد واليه زياد بن أبيه بناء قنطرة في مدينة الكوفة[٨٦] ...

وقد نشطت حركة مشاريع الري نشاطاً واسعاً في خلافتي عبدالملك بن مروان . وابنه الوليد في سهول وادي الرافدين، وبذل ولاة هذين الخليفتين جهوداً كبيرة في هذا المضمار ..

٨٤- أنظر : د . صالح أحمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، بغداد ، ١٩٥٣ ، ص١٤٩ - ١٥٠ . عن البلاذري ، انساب الأشراف ، جـ٤ ، ص٧٨٨ - مخطوطة القاهرة ..

٨٥- أنظر : البلاذري ، فتوح ، ص٢٩١ ..

٨٦- أنظر : نفسه ، ٢٨٥ ..

في سواد العراق ، وسهول وادي الرافدين الجنوبية. أولى الحجاج بن يوسف الثقفي عناية واهتماماً في العمل في الحقل الزراعي ، واقامة العديد من مشاريع الري .

وسبق أن أشرنا كيف أن الحجاج بن يوسف لعب دوراً أساسياً في استصلاح البطائح ، خاصة عندما تقدم مسلمة بن عبدالملك ، وعرض مبلغ « ثلاثة ملايين درهم » لاستصلاحها .. وكان الحجاج المشرف المباشر على الصرف والانفاق ..

وكان الحجاج يقوم بجولات تفقدية في الحقول الزراعية ويستفسر من الفلاحين ، ويسألهم عن أحوالهم ، وأحوال غلاتهم الزراعية وظروفها[٨٧] ، وانه قدم للفلاحين قرضاً بمبلغ مليوني درهم من بيت المال مساعدة لهم في اعمالهم الزراعية[٨٨] ..

ومن مظاهر اهتمام الحجاج بالامور الزراعية ، ما كان يقيمه من احتفالات رسمية في مدينة واسط في أوقات نضوج بعض الغلات الزراعية[٨٩] ..

٨٧ـ انظر : الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج٢ ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص١٥ .

٨٨ـ انظر : ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ ، ص١٥ .

٨٩ـ انظر : المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص١٢٩ .

وقد منع الحجاج ذبح البقر ، بهدف زيادة عددها ، والاستفادة منها في الحرث والري[٩٠]

وقد أكمل الحجاج بن يوسف حفر نهر الانبار على نهر الفرات كما أشرنا الى ذلك[٩١] ....

على أن من أبرز مشاريع الري التي قام بها الحجاج الثقفي في سهول وادي الرافدين الجنوبية ، كان قد تجلى في حفر أنهار عديدة فيه ...

وكان الحجاج قبل اتخاذه مدينة واسط ، أراد نزول الصين من كسكر ، فحفر نهر الصين[٩٢] ، وجمع له الفعلة ... ثم بدا له، فأتخذ واسطا فنزلها ، واحتفر النيل والزابي ، وأحيا ما على هذين النهرين من الارضين ، وأحدث المدينة التي تعرف بالنيل ومصرها[٩٣] ...

٩٠ـ See, Jean-Perier, ViE D' Al-Hadjdadj ibn Yousif, Paris, 1914, p., 260.

٩١ـ أنظر ما سبق أن أشرنا اليه في أعلى هامش ٤٧ وفي تسلسل ٤٧ من هوامش البحث .

٩٢ـ أنظر : البلاذري ، فتوح ، ص٢٨٨ .
ياقوت ، معجم البلدان ، ٣/٤٤٤ ، ٤/٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

٩٣ـ أنظر : البلاذري ، فتوح ، ص٢٨٨ ، وياقوت ، معجم البلدان ، ٣/٣٧٩ ، ولسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس ، وكوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٥٤ ، ص٩٨-٩٩ .
وأنظر : عبدالواحد ذنون طه ، العراق في عهد الحجاج بن يوسف ،
الثقفي ...

وكسكر ناحية واسعة ، قصبتها واسط القصب، والتـي بين الكوفة والبصرة ، ويحتمل أن نهر « الصين سمي بهذا الاسم ، نسبة الى موقعين في كسكر يسميان بالصين (الصين الاعلى والصين الاسفل) ، أو نسبة الى بليـدة تقع جنـوب واسط يقـال لهـا الصينية[٩٤] ..

أما « الزابي » ، فقد سمي بهذا الاسم لأخذه الماء من نهر الزابي القديم .. وأما النيل ، فكان يأخذ من الفرات الى دجلة ، في منطقة تقع شمال بابل ، وقد سماه الحجاج باسم « النيـل » ، تيمناً بنهر النيل في مصر ..

وكان يجري الى الشرق ابتداء من مخرجه ، ويمر بقرى عامرة كثيرة ، وتتفرع منه أنهار صغيرة متعددة ، وقد أعاد الحجاج حفر نهر « صراة جاماسب » عن يسار النيل ، وهناك بنى مدينـة النيل التي تقع بين أرض بغداد والكوفة ، وكانت أجمل مدينة في الناحية كلها .. وأطلالها اليوم بين المدحتية (قرب الفـرات) والنعمانيـة (على دجلة) تسمى « بتل النيل » ، والنيليات ، والنيلية .. وقد فحصتها دائرة الآثار العراقية سنة ١٩٤٥ ، فوجدت علـى امتـداد جانبي النهـر المندرس تلولا اثرية ، وبقايا أبنيـة ، هـي معالـم القرى التي كانت تقوم على هذا النهر ، وكان عرض النهـر نحـو

٩٤ـ انظر : البلاذري ، فتوح ، ص٢٨٨ ، وياقوت ، معجم البلدان ، ٣/٤٤٤ و ٤/٢٧٤ ــ ٢٧٥ .

ثلاثين متراً ، وتدل البقايا الأثرية ، على أن المدينة ظلت عامرة الى العهد الايلخاني[٩٥] ....

لم تقتصر عملية انشاء مشاريع الري المتعددة على سهول وادي الرافدين الجنوبية في خلافتي عبدالملك وابنه الوليد . بل امتدت لتشمل سهوله الشمالية ، وفي الجزيرة الفراتية . وحتى الثغور الجزرية في أعالي نهر الفرات ..

ففي الموصل : ولى عبدالملك بن مروان ابنه سعيداً على الموصل ، فحفر سعيد نهراً فيها ، وإليه ينسب نهر سعيد بالموصل[٩٦] .

وفي الجزيرة الفراتية ، قام سعيد بن عبدالملك أيضاً في خلافة أخيه الوليد بحفر نهر فيها ، وعمر ماهناك من الاراضي . وكان يقال له سعيد الخير[٩٧] ....

وفي بالس والحد الاعلى (من الثغور الجزرية) ، قام مسلمة بن عبدالملك بن مروان ، بحفر نهر من الفرات ، يسقي قرى هذه المنطقة ، فنسب اليه النهر المعروف بنهر مسلمة .

وكان مسلمة قد توجه غازيا للروم ـ من نحو الثغور الجزرية ـ فعسكر ببالس ، وكانت بالس والقرى المنسوبة اليها في حدها

٩٥ـ انظر : نفس المصادر والمراجع الواردة في هامش ٩٣ اعلاه ..

٩٦ـ انظر : البلاذري ، فتوح ، ص٣٢٨ .

٩٧ـ انظر : نفسه ، ٣٢٨ .

الاعلى والاوسط والاسفل مركزا لقرى هذه المنطقة . وتقع بالس الى قرب الرقة ، وعلى ضفة الفرات الغربية عند سهول صفين[٩٨] ..

ويبدو أن أعظم انجاز قام به مسلمة بن عبدالملك في مجال الري . هو انشاؤه لأكبر مشروع اروائي عرفه التاريخ الاموي في الجزيرة الفراتية ....

وقد تجلى هذا المشروع الاروائي الكبير ـ بالخزان المائي الضخم ، أو ما أطلق عليه « بسد حصن مسلمة الذي أقامه على نهر البليخ[٩٩] .. وقد وصفه ياقوت بقوله : « وحصن مسلمة بالجزيرة بين رأس عين والرقة بناه مسلمة بن عبدالملك بن مروان بن الحكم، بينه وبين البليخ ميل ونصف ، وشرب أهله من مصنع فيه طوله مئتا ذراع في عرض مثله ، وعمقه عشرين ذراعا معقودة بالحجارة، وكان مسلمة قد أصلحه ، والماء يجري فيه من البليخ في نهر منفرد

٩٨ـ انظر : البلاذري ، فتوح ، ص١٥٦ .

٩٩ـ البليخ : بالفتح ثم الكسر وياء مهملة ، اسم نهر بالرقه ، تنصب فيه الماء من عيون . واعظم تلك العيون ، عين يقال لها « الدهبانية » في أرض حران ، فيجرى نحو خمسة أميال ، ثم يسير الى موضع قد بني عليه مسلمة بن عبدالملك حصناً يكون أسفله قدر جريب ، وارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعاً ، وأجرى ماء تلك العيون تحته ، فاذا خرج من تحت الحصن يسمى بليخاً . ويتشعب من ذلك الموضع أنهار تسقي بساتين وقرى ، ثم تصب في الفرات تحت الرقه بميل ..
انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧٣٤ ـ ٧٣٥ .

في كل سنة مرة حتى يملأه ، فيكفي أهله بقية عامهم ، ويسقي هذا النهر بساتين حصن مسلمة ، وفوهته من البليخ على خمسة أميال ، وبين حصن مسلمة وحران تسعة فراسخ ، وهو على طريق القاصد للرقة من حران »[١٠٠] ..

ولما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة ، أولى عناية فائقة بمشاريع الري ، فقد رأى فيها أهمية كبيرة في احياء الارض واستصلاحها ، وكان يوجه كتبه الى ولاته يحثهم فيها على شق القنوات والجدوال وحفر الانهار ، والاهتمام بالفلاح ورعايته[١٠١] .

ففي خلافته ، حفر نهر في البصرة ، فقد كتب الى عدي بن أرطاة . فحفر هذا النهر الذي عرف بنهر عدي[١٠٢] .

وفي البصرة ايضاً حفر يزيد بن المهلب بن ابي صفرة ، نهره المعروف بنهر يزيد[١٠٣] ..

ويبدو أن حركة انشاء مشاريع الري قد بلغت أوجها وتقدمها في خلافة هشام بن عبدالملك (١٠٥هـ ــ ١٢٥هـ/٧٢٤م ــ ٧٤٣م)

١٠٠ـ انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٧٨ . وأنظر كتابنا : الأمير مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص١٢٦ ــ ١٢٧ .

١٠١ـ أنظر : يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص٥٩ ، ٨٨ .

١٠٢ـ أنظر : البلاذري ، فتوح ، ص٣٦٣ .

١٠٣ـ انظر : نفسه ، ص٣٥٨ .

شملت سهول وادي الرافدين الشمالية والجنوبيـة .. ولعل ذلك يعزى الى ميل هذا الخليفة ، ورغبته في امتلاك الضياع الواسعة، وما كانت تدر عليه من غلات وواردات طائلة ، وقد ساعد على ذلك أيضاً طول مدة خلافته البالغة عشرين عاماً ، اضافة الى ما كان يبديه ولاته ـ في وادي الرافدين ـ من نشاط واسع في هذا الميدان ..

ففي خلافة هشام ـ كما أشـرنا ـ استصلحـت مساحات واسعة مـن البطائح ، واستخرجت، الارضـين ، وذلك بتجفيف المستنقعات ، وعمل المسنيات ،وقد قام بهذا العمل حسان النبطي في ولاية خالد بن عبدالله القسري على العراق ..

وكان الخليفة هشام نفسه يولي عناية كبـيرة باستحـداث الضياع وحفر الانهار ..

ففي الجزيرة الفراتية :

استحدث الخليفة هشام « الرصافـة » ، التـي كانت تدعى « برصافة هشام » ، وكان هشام ينزل قبلها الزيتونة ، وحفر الهني والمري واستخرج الضيعة التي تعرف بالهني والمري[١٠٤] ..

وفي الموصل :

قام الوالي الحر بن يوسف ـ بعد أن أخذ موافقة الخليفة ـ على حفر نهر المكشوف فيها ، ليسقي منه أهلها ، وذلك لبعد دجلـة

١٠٤ـ انظر : نفسه ، ص١٨٤ .

عنها . وكان قد بدأ العمل فيه عام ١٠٧هـ ، وقد أتمه الوليد بن تليد العبسي في عام ١٢١هـ[١٠٥] ...

ويبدو أن العراق بمدنه الثلاث : الكوفة ، واسط ، والبصرة كان المحور الاساس الذي تركزت فيه حركة انشاء مشاريع الري المتعددة من حفر الانهار ، وشق القنوات والجداول ، واقامة السدود والقناطر ، وقد حظي بنصيب وافر في هذا الميدان في خلافة هشام بن عبدالملك ، وولاية خالد بن عبدالله القسري .

ففي الكوفـة :

قام خالد بن عبدالله القسري بحفر نهر الجامع فيهـا ، كما أصلح قنطرتها ، واستوثق منها[١٠٦] ..

كما كتب خالد القسري الى الخليفة هشام، يستأذنه في عمل قنطرة على دجلة ، فكتب اليه هشام : ان كنت متيقناً أنها تتم فاعملها فعملها ، وأعظم النفقة عليها[١٠٧] .

١٠٥ـ انظر : الأزدي ، تاريخ الموصل ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص٢٦ - ١٦٤ . وقد بلغ ما صرف على حفر هذا النهر ثمانية ملايين درهم ، وهي من خراج الموصل للمدة المحصورة بين عام ١٠٨هـ ــ ١٢١هـ ، وكله صرف على حفر هذا النهر وعمل الأرحاء (الطواحين) عليه . أنظر : عبدالمجيد محمد صالح الكبيسي ، عصر هشام عبدالملك ، رسالة ماجستير على الألة الكاتبة ، بغداد ، ١٩٧٣ ، ص٣٠٦ .

١٠٦ـ أنظر : البلاذري ، فتوح ، ص٢٨٤ .

١٠٧ـ أنظر : نفسه ، ص٢١٩ .

وفي البصرة :

أخذ بعض الافراد يستثمرون رؤوس أموالهم في حفر الانهار، واقامة السدود والقناطر فيها ... فمن ذلك ما قام به بشر بن عبيدالله بن أبي بكرة من حفر المرغاب والسواقي ، والمعترضات بالتغلب على الماء ، وكان ذلك في ولاية خالد بن عبدالله القسري[١٠٨] ..

وفي البصرة أيضاً ، احتفر كثير بن عبدالله السلمي ، وهو أبو العاج ، وعامل يوسف بن عمر الثقفي عليها ، نهراً من نهر ابن عتبة الى الخستل فنسب اليه[١٠٩] .

واشتهر خالد بن عبدالله القسري بحفر نهر المبارك . وقد بلغت نفقات حفره اثني عشر مليون درهم[١١٠] ..

وكان لحفر هذا النهر – في أول الامر – أثره الطيب في نفوس الناس ، وانه كان يسقي مساحات واسعة من أراضي السواد ، والمناطق المحصورة بين واسط والبصرة .. وقد مدحه الفرزدق الشاعر المعروف بقوله :[١١١]

١٠٨– انظر : نفسه ، ص٣٥٨ .

١٠٩– انظر : نفسه ، ص٢٥٩ .

١١٠– انظر : عبد المجيد الكبيسي ، عصر هشام بن عبدالملك ، المرجع السابق ، ص٣٠٢ .

١١١– انظر : البلاذري ، فتوح ، ص٢٨٩ ، والأصفهاني ، الأغاني ، ج١٩ ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص٤٥ .

أعطى خليفته بقوة خالد نهراً يفيض له على الأنهار
ان المبارك كاسمه يسقى به حرث السواد وناعم الجبار
وكأن دجلة حين أقبل مدها ناب يمد له بحبل نظار

وعلى الرغم من أن الخلافة الاموية ، أخذت تسير نحو الضعف والانحلال بعد خلافة هشام بن عبدالملك ، الا أنه كانت تلوح في الافق بوادر الاهتمام باقامة بعض مشاريع الري ، كاقامة جسر ، أو حفر نهر ، سواء كان ذلك في الثغور الجزرية ، أم في سهول العراق الجنوبية .. نذكر من ذلك ، ماتم في خلافة الوليد بن يزيد بن عبدالملك المقتول من تشييد جسر على طريق أذنه من المصيصة (من الثغور الشامية) ، وذلك سنة خمس وعشرين ومائة ، ويدعى جسر الوليد(١١٢) . وكذلك ماتم من حفر نهر في البصرة في ولاية عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز ، عامل العراق من قبل الخليفة يزيد بن الوليد بن عبدالملك عام ١٢٦هـ/٧٤٤م ، وقد عرف بنهر عمر(١١٣) .

١١٢ــ انظر : البلاذري ، فتوح ، ص١٧٢ .

١١٣ــ انظر : نفسه ، ص٣٦٣ .

العهد العباسي

١٣٢هـ - ٦٥٦هـ

٧٥٠م - ١٢٥٨م

لقد ورث العباسيون عن الامويين كل هذا الزخم الحافل من مشاريع الري . ولم يتوقفوا عند هذا الحد ، بل عملوا على تطويرها ، وتوسيعها ، وتجديدها .

وكان لبناء بغداد عام ١٤٥هـ/٧٦٢م التي بناها الخليفة أبو جعفر المنصور واختيار موقعها على نهر دجلة أهمية كبيرة في احياء الارض واستصلاحها . وتطوير مشاريع الري واستحداثها ..

قال ابن جبير في رحلته عند زيارته بغداد عام ٥٨٠هـ/١١٨٥م : « وحسبك من شرف موضع بغداد أن دجلة تسقي شرقيها ، والفرات يسقي غربيها ، وهي كالعروس بينهما »[١١٤] ..

لم تقتصر جهود الخلفاء العباسيين في مجال احياء الارض واستصلاحها ، أو اقامة العديد من مشاريع الري على مدينة بغداد حسب ، وانما امتدت لتشمل مساحات واسعة من الأراضي التي

١١٤- ابن جبير ، الرحلة ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص١٩٢ .

عرفت « سواد بغداد » أو ما أطلق عليه أيضاً « بريف بغداد » والتي يمكن حصرها ضمن الحدود الجغرافية اعتباراً من الخط الوهمي الواصل من تكريت على دجلة الى هيت على الفرات شمالا وحتى الخط الوهمي الواصل من مدينة الكوت ... بين الكوت على دجلة والكوفة على الفرات جنوباً .. وبذلك وجه الخلفاء العباسيون عنايتهم ورعايتهم صوب الأنهار . والقنوات المتفرعة من نهري دجلة والفرات التي كانت تسقي العديد من القرى والبساتين الواقعة ضمن هذا الريف البغدادي الواسع[١١٥] .

ويمكن تقسيم هذه الانهار المتفرعة من نهري دجلة والفرات الى قسمين مهمين هما :

١ ــ أنهار ريف بغداد الغربية (الكرخ) :

وتشمل الانهار المتفرعة من الضفة اليمنى لنهر دجلة والانهار المتفرعة من الضفة اليسرى لنهر الفرات . وتروي المناطق والاراضي المحصورة بين هاتين الضفتين .

---

١١٥ ــ د . ناجية عبدالله . ريف بغداد . رسالة دكتوراه على الألة الكاتبة . بغداد . ١٩٨١ .

ويعد نهر الدجيل من أهم الانهار المتفرعة من الضفة اليمنى لنهر دجلة • أما الانهار المتفرعة من الضفة اليسرى لنهر الفرات فهي : نهر عيسى ، ونهر صرصر ، ونهر الملك ••

نهر الدجيل : ويأخذ ماءه من الضفة اليمنى لنهر دجلة في منطقة تقع أعلى بغداد قرب تكريت ، وفي نقطة تقع على مسافة قليلة من شمال موقع سد نمرود جنوب سامراء •• وقد تشعبت من نهر الدجيل فروع عديدة تنحدر في اتجاه الجنوب ، والجنوب الغربي ، وبعضها في اتجاه الجنوب الشرقي حتى تصل مياهها الى بغداد ••

والدجيل تصغير دجلة ، ويرجح أنه سمي بذلك نسبة الى دجلة الكبير باعتباره فرعاً منه •وقد روي أن أبا جعفر المنصور حين بنى بغداد أخرج من دجلة دجيلا يسقي القرى التي يمر بها غرب دجلة سماه دجيلا(١١٦) •

أما نهر عيسى : فيأخذ ماءه من الفرات من « قنطرة دمما » ، ويصب في دجلة في الجانب الغربي منها جنوب بغداد ، والنهر الكبير منه يدعى بنهر عيسى الأعظم تميزاً له عن نهر عيسى الفرع • وقد

١١٦ـ الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص٢٣٤ •

سمي بهذا الاسم لأن الأمير عيسى بن علي شيد قصره عليه حيث المكان الذي يصب فيه في نهر دجلة ..

وقد أقيمت على ضفافه قرى ومزارع كثيرة ذكر أن عددها في أوائل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي كان سبعين قرية ومزرعة . كما شيدت على نهر عيسى قناطر عديدة قبل أن يدخل مدينة بغداد . وقد ذكر أن أبا جعفر المنصور بنى قنطرة جديدة عليه[117] .

أما نهر صرصر : فهو ثاني الأنهار الكبيرة الذي يأخذ مياهه من الفرات أسفل قرية أو قنطرة دمما ، ويصب في دجلة بين بغداد والمدائن . وكان يسقي قرى وضياعاً كثيرة في هذه المنطقة[118] ...

أما نهر الملك : فيأخذ ماءه من الفرات . وهو نهر كبير ، ويصب بنهر دجلة تحت المدائن ، وفرع منه يسير نحو الجنوب الى الكوفة ، وكان يسقي ما عليه من سواد العراق قرى كثيرة تصل الى حوالي ٣٦٠ قرية ..

١١٧ـ ناجية عبدالله ، المرجع السابق ، ص٧٦ .

١١٨ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، مصر ، ١٩٥٩ ، ص٢٩٩ .
التفاصيل .

٢ ـ أنهار ريف بغداد الشرقية (الرصافة)

وكان ريف بغداد الشرقية يستقي بنهرين كبيرين هما : تامرا ، والنهروان ..

نهر تامرا : وهو نهر كبير . وكان يطلق على نهر ديالى الحالي ، وهو رافد من روافد دجلة وليس فرعاً منه . ومنبعه من جبال شهرزور (في السليمانية) ومصبه في دجلة تحت بغداد . ويستقي قرى وبساتين كثيرة بين بعقوبة وبغداد ..

أما النهروان : فهو نهر قديم . يتفرع من الجانب الأيسر لنهر دجلة في جوار سامراء (عند الدور) . ويستمر في جريانه بمحاذاة نهر دجلة من جهة الشرق فيلتقي به على بعد مائة ميل جنوب بغداد عند الكوت .

ومن الأنهار الأخرى التي تسقي الجانب الشرقي لريف بغداد نهر الخالص ، ويتفرع من نهر دجلة قرب بعقوبة . ويسير بين النهروان ودجلة ، ويصب في دجلة شمال مدينة بغداد عند الشماسية[١١٩] .

---

١١٩ ـ احمد سوسه ومصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد المفصل ، بغداد ، ١٩٥٨ ، ولسترنج ، بغداد في عهد الخلافة العباسيه ، بغداد ، ١٩٣٦ .

استمرار عملية انشاء مشاريع الري

وفي السهل الجنوبي من العراق ــ بين واسط والبصرة ــ أولى الخلفاء العباسيون وولاتهم عناية فائقة باحياء الأرض ، واقامة العديد من مشاريع الري ..

ففي مدينة واسط : حفر نهر الميمون ، وقد حفره وكيل لأم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور يقال له سعيد بن زيد ، وكذلك حفر نهر الأمير نسب الى الأمير عيسى بن علي ، وكان في قطيعته[١٢٠] .

وفي مدينة واسط أيضاً ، أمر الخليفة المهدي بن أبي جعفر المنصور بحفر نهر الصلة . وأجبى لما عليه من الأرضين ، وجعلت غلته لصلات أهل الحرمين والنفقة هناك ، وطبق عليها نظام المقاسمة على النصف[١٢١] ..

١٢٠ــ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٨٩ .

١٢١ــ نفسه ، ص٢٨٩ .

وحظيت مدينة البصرة بنصيب وافر من اهتمام الخلفاء العباسيين وولاتهم باحياء أرضها ، واقامة العديد من مشاريع الري فيها . فقد استخرجت لأبي جعفر المنصور أرض من أراضي البطيحة فيها تدعى السبيطية . كما حفر نهر الأمير للمنصور ، وقد وهبه لابنه جعفر ، كما حفر نهر أبي الأسد حفره قائد من قواد المنصور[١٢٢] .

وقام سليمان بن علي بنشاطات زراعية واسعة في البصرة تمثلت في حفر الأنهار ، واقامة السدود ، وأحواض المياه، كما أنشأ «المغيثة» بهدف زيادة المياه في نهر الدير ، وأنفق عليها مليون درهم[١٢٣] ..

وأحيا عيسى بن علي أراضي واسعة في منطقة سواد العراق تمتد بين العذيب وهيت ، وعمر ما عليها من الأرضين ، وغرس النخيل ، وحفر فيها العيون ، وكانت تدعى « العرق »[١٢٤] .

وفي أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي أولى الخليفة المعتضد عناية كبيرة في تحسين مشاريع الري . فأمر سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م بكري نهر الدجيل ، وقلع صخر في فوهته كان يمنع الماء فيه[١٢٥] ...

١٢٢ـ نفسه ، ص٣٥٩ .

١٢٣ـ نفسه ، ص٢٩١ .

١٢٤ـ نفسه ، ص٢٩٧ .

١٢٥ـ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ١١ ، الطبعة الحسينية ، ص٣٤٩ .

وكان الخليفة المعتضد يشرف بنفسه على توزيع المياه، ويستمع الى شكاوى الزراع ، فمن ذلك ما كان من اتفاق بعض أصحاب الضياع على تضييق أبواب قنطرة « دمما » الواقعة على صدر نهر عيسى الأخذ من الفرات بغرض استئثارهم بالماء ، فأمر المعتضد بتكوين لجنة للتحقيق التي قررت توسيع الباب الوسطى للقنطرة وجعل سعته اثنين وعشرين ذراعاً[١٢٦] .

وكان علي بن عيسى أكثر وزراء المقتدر اهتماماً بعمارة الأراضي الزراعية ، وكان يعتقد أن حفظ نظام الري هو العامل الرئيس في رفاه البلاد[١٢٧] .

١٢٦ـ د . عبدالعزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، بغداد ، ١٩٤٨ ، ص٣٩ .

١٢٧ـ نفسه ، ص٤٠ .

فترة التدهور في مشاريع الري

وفي فترة امرة الأمراء ٣٢٤هـ ــ ٣٣٤هـ / ٩٣٥م ــ ٩٤٥م أهملت القنوات ، وخربت البلاد نتيجة المنازعات والحروب بين الأمراء الطامحين ، ونتيجة فوضى الجند . فقد خرب ابن رائق نهر ديالى وكان سبباً في بثق النهروان مما دمر المزروعات . كما انبثقت أنهر أخرى مثل نهر بوق ، ونهر الرفيل ، ولم تقع أية عناية بكل هذه الكسور[١٢٨] .

وفي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، جرت محاولات اصلاحية في نظم الري . فقد حاول معز الدولة البويهي ٣٣٤هـ ــ ٣٥٦هـ / ٩٤٥م ــ ٩٦٦م سد بثق نهر الرفيل ، ونهر الروباثية ، وسد بثوق النهروانات ، ولكن عناية معز الدولة تلاشت أمام سياسته الهدامة تجاه الأراضي بسبب اقطاعه الأراضي قواده وخواصه[١٢٩] ...

وحاول عضد الدولة البويهي ٣٦٩هـ / ٩٧٩م القيام بأصلاحات زراعية ، واصلاح نظام الري وحاول كري بعض الأنهار مثل نهر عيسى ، ولكن فترة المحاولات الأصلاحية هذه كانت قصيرة

١٢٨ــ نفسه ، ص٤٠ .

١٢٩ــ نفسه ، ص٤١ــ٤٢ .

فسرعان ما ساد الخراب والدمار ، وقد شهدت السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع الهجري فيضانين جارفين[١٣٠] .

وفي عهد السيطرة السلجوقية ٤٤٧هـ ـ ٥٧٥هـ/١٠٥٥م ـ ١١٧٩م ، زادت أحوال نظم الري سوءاً وخراباً . ويكفي أن نشير هنا الى أن جيش السلاجقة في اعتدائه على مدينة بغداد سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م خرب فيها (٧٧٠) دولاباً ، وكانت هذه الدواليب قائمة على شاطيء الجانب الغربي لدجلة ، وخصوصاً على نهر عيسى ذلك لأن المياه كانت تنقطع عنه في فصل الصيف بسبب نقص مياه الفرات ، فتقوم الدواليب بسقي المزارع والبساتين[١٣١] .

ان تغلغل النفوذ الأجنبي على مقدرات العراق والاستحواذ على ثرواته الطبيعية ، ابتداء من فترة امرة الأمراء ، وامتداداً الى العهدين البويهي والسلجوقي ، قد أدى الى الأهمال الشامل وعدم العناية التامة بمختلف مشاريع الري مما سبب وقوع العديد من حوادث الفيضانات في بغداد ، أشار اليها الدكتور أحمد سوسة في كتابه « فيضانات بغداد » حيث سجل حدوث سبع عشرة حالة فيضان في بغداد[١٣٢] ..

١٣٠ـ نفسه ، ص٤٧ و ٤٩ .

١٣١ـ ناجية عبدالله ، ريف بغداد ، المرجع السابق ، ص٤٠٨ .

١٣٢ـ احمد سوسة ، فيضانات بغداد في التاريخ ، القسم الأول ، بغداد ، ١٩٦٣ ، ص٣٤١ـ٣٤٤ .

فترة الانتعاش في احياء مشاريع الري

وعندما جاء الناصر لدين الله الى الخلافة ٥٧٥هـ ــ ٦٢٢هـ / ١١٧٩م ــ ١٢٢٥م ، عمل على انقاذ الخلافة العباسية من الهيمنة السلجوقية وتخليص البلاد من سيطرتهم السياسيــة والأقتصادية ، وبذل جهوداً كبيرة في ابعاد خطر الفياضانات عن بغداد ، وذلك بالعمل على تحسين نظم الري ..

فقد شهدت سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م نقصاناً في مياه نهر دجلة ، بلغ مقياس الماء الجاري ببغداد نحو خمسة أذرع ، وبأمـر مـن الخليفة الناصر لدين الله جرت محاولات كبيرة لكري نهر دجلة وتطهيره من الرواسب ، وحشد لها عدداً كبيراً من الناس .. وفي عهده أيضاً كري نهر الدجيل وحفر وأصلحت السدود[١٣٣] .

وعند وقوع فيضان سنــة ٦١٤هـ/١٢١٧م ، خـرج الناصر لدين الله بنفسه متألماً ، مشجعاً الناس على درئه ، مخاطبـاً اياهـم بقوله : « لو كان هذا الماء يرد بمال أو حرب لدفعته عنكم »[١٣٤] ..

واستمرت عمليات العناية الكبيرة بشؤون الري في خلافتـي المستنصر بالله والخليفة المستعصم فقد قام المستنصر بالله سنـة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م بحفر نهر جديد يأخذ مياهه من الدجيل سمي

١٣٣ــ ناجية عبدالله ، المرجع السابق ، ص٤٢٣ .

١٣٤ــ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ١١ ، بيروت ، ١٩٦٥ ــ ١٩٦٦ ، ص٣٣٧ .

« بدجيل المستنصري » ، وشيد عليه القنطرة المعروفة « بجسر حربي »[١٣٥] ..

ولم يكن اهتمام الخليفة المستعصم باصلاح السدود أقل شأناً من سلفه من الخلفاء ، ففي سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م ، أمر ببناء سد على فم نهر عيسى مما يلي دجلة ليزداد ماء النهر[١٣٦] ...

وفي الجزيرة الفراتية حافظ الخلفاء العباسيون وولاتهم على نظم الري المختلفة التي أنشأها وأقامها الأمويون في مختلف مناطقها ومدنها . وأولى العباسيون اهتماماً في حفر الآبار والعناية بالعيون العديدة المنتشرة فيها ، خاصة وان نظام الري في مناطق الجزيرة الفراتية قائم على مياه العيون والأمطار . فقد كانت في مدينة رأس العين ثلاثمئة وستون عيناً للماء العذب ، يستفاد منها في ري البساتين، وكانت حقول وبساتين نصيبين تروى من عين ماء في التلال المجاورة ، كما كانت الأمطار مهمة للزراعة في منطقة الجزيرة، وأكثر مدن الفرات الزراعية تعتمد على مياه الأمطار في اروائها وسقيها[١٣٧] ..

وأخيراً : رغم الانتكاسات التي أصابت مختلف مشاريع الري في العراق خلال فترة امرة الأمراء ، وفترة التسلطين البويهي والسلجوقي على العراق ، الا أن الخلفاء العباسيين ووزراءهم

١٣٥ـ ناجية عبدالله ، المرجع السابق ، ص٤٢٩ .

١٣٦ـ نفسه ، ص٤٢٤ .

١٣٧ـ د . عبدالعزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص٥٢ـ٥٣ .

وولاتهم كانوا على مستوى كبير من الشعور بالمسؤولية ، والانتماء الى أرض العراق الطيبة ، ولم يتهاونوا في القيام بجهود كبيرة ملموسة في حفر الأنهار وكريها واقامة السدود والقناطر ، ومراقبة الزيادات في مياه دجلة وغيرها من الأنهار وذلك باستعمال آلات مقاييس الماء التي كانت تعطي الاشارة الى ارتفاع أو انخفاض مناسيب المياه ، والعمل بكل جد واخلاص لدرء خطر الفياضانات ، وكان الشعب العراقي يسهم ويتعاون مع الحكومة من أجل خير العراق ورفع عزته وكرامته • واستمرار عطائه المثمر ••

وختاماً : نستطيع أن ندرك من خلال هذا البحث التاريخي العلمي المركز لتاريخ الري في سهول الرافدين مدى اهتمام الخلفاء والولاة العرب في انشاء العديد من مشاريع الري في العراق ••

وان العراق ، وان لم يكن مركز الخلافة العربية الأسلامية ــ خاصة خلال العهد الأموي ــ لكنه كان المحور ، ومركز الرعاية والاهتمام ، وذلك لما أنعمت عليه الطبيعة من نهرين عظيمين هما دجلة والفرات ، فكانا بحق هبة العراق ونعمته ••

وأرجو أن يكون في هذا أمل وتطلع لكل دارس وباحث لأن يكشف عن مكنونات كنوز أمتنا العربية في العديد من مجالاتها التراثية الحية حتى يبزغ وجهها الحضاري المشرق ، فنبني في ضوئها وهديها قاعدة صلدة راسخة ، وسلماً ثابتاً متيناً نرقى به أعلى درجات الرقي والتقدم •

المصادر الأوليـــة

القرآن الكريم

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٦٥ .

ابن جبير : الرحلة ، بيروت ، ١٩٦٤ .

ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ .

ابن الفقيه : كتاب مختصر البلدان ، ليدن ، ١٣٠٢ .

ابن قتيبه : عيون الأخبار ، القاهرة ، ١٩٢٥ .

ابن منظور الخزرجي : لسان العرب .

أبو عبيد ، القاسم بن سلام : كتاب الأموال ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ .

أبو يوسف : كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٣٠٤هـ .

البلاذري : فتوح البلدان ، مصر ١٩٥٩ .

الجاحظ : البيان والتبين ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، بيروت ، ١٩٧٥ .

الأزدي : تاريخ الموصل ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

الأصفهاني : الأغاني ، بيروت ، ١٩٥٦ .

الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ، ١٨٨١ – ١٨٨٢ .

الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، الطبعة الحسينية ، القاهرة .

الماوردي : الأحكام السلطانية ، ط (١) ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .

ياقوت : معجم البلدان .

يحي بن آدم : كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٣٠٢ هـ .

اليعقوبي : تاريخ ، النجف ، ١٩٣٩ .

المراجع الثانوية

العربية والأجنبية

د . **أحمد سوسه** : فيضانات بغداد في التاريخ . القسم الأول بغداد . ١٩٦٣ .

د . **أحمد سوسه ومصطفى جواد** : دليل خارطة بغداد بغداد ١٩٥٨ .

د . **صالح أحمد العلي** : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، بغداد ، ١٩٥٣ .

د . **عبدالعزيز الدوري** : تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، بغداد ، ١٩٤٨ .

د . **عبدالعزيز الدوري** : العصر العباسي الأول بغداد ، ١٩٤٥ .

د . **عبدالعزيز الدوري** : النظم الأسلامية ، بغداد ، ١٩٥٠ .

د . **عبدالمجيد محمد صالح الكبيسي** : عصر هشام بن عبد الملك . رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة ، بغداد ، ١٩٨٠ .

د . **عبدالواحد ذنون طه** : العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي . رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة . بغداد ، ١٩٧٣ .

د . عواد مجيد الأعظمي : تاريخ مدينة القدس ، بغداد ، ١٩٧٢ .

د . عواد مجيد الأعظمي : معالم التراث العربي والاسلامي في فلسطين ، بغداد ، ١٩٧٥ .

د . عواد مجيد الأعظمي : الزراعة والأصلاح الزراعي في عصر صدر الأسلام والخلافة الأموية ، بغداد ، ١٩٧٨ .

د . عواد مجيد الأعظمي : الأمير مسلمة بن عبدالملك بن مروان ، بغداد ، ١٩٨٠ .

فالترهنتز : المكاييل والأوزان الأسلامية ، منشورات الجامعة الأردنية ، ١٩٧٠ .

لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٥٣ .

د . ناجية عبدالله ابراهيم : ريف بغداد ، رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة ، بغداد ، ١٩٨١ .

المراجع الأجنبية

1. E.1. 2nd. Edition, Salih al-Ali, Art., Al-Batiha.

2. C. Brockelman, History of the Islamic Peoples, English Trns. from German, London, 1949.

3. Danial C. Dennett, Conversion and poll-Tax in early Islam. Cambridge, 1950

4. F. Lokkegaard, Islamic Taxation in the Classic periods, Copenhangen, 1958.

5. Jean Perier, ViE D' Al-Hadjdjadg ibn Yousif, Paris, 1914

الفهرست

المواضيع :	الصفحة
١ ـ استهلال	٥ ـ ٧
٢ ـ عهد الرسول الكريم (ص)	٨ ـ ١٥
٣ ـ العهد الراشدي	١٦ ـ ٣٣
٤ ـ العهد الأموي	٣٤ ـ ٥٨
٥ ـ العهد العباسي	٥٩ ـ ٧١
٦ ـ المصادر الأولية	٧٢ ـ ٧٣
٧ ـ المراجع الثانوية ـ العربية والاجنبية	٧٤ ـ ٧٥
٨ ـ المراجع الأجنبية	٧٦



١٩٨٥

السعر ـ ٣٠٠ فلس

دار الحرية للطباعة ـ بغداد   توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان

تصميم الغلاف ـ نهلة محمد عبد الوهاب